بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة في الرد على مقولة الإمبراطور البيزنطي

مانويل الثاني[1] عن الإسلام

(١) ولد مانويل الثاني سنة ١٣٥٠هـ، وهو الابن الثاني للإمبراطور يوحنا الخامس باليولوج، وقد تولى مانويل حكم سالونيك من قبل والده مابين عامي ١٣٦٥-١٤٧٠، وسافر أثناء ولايته إلى الغرب طالباً المساعدة العسكرية ضد الغزاة العثمانيين، بعد محاولة الانقلاب الفاشلة التي قام بها أندرونيكوس الرابع - الابن الأكبر للإمبراطور -. تم تعيين مانويل وليا للعهد، لكن الأمر لم يستمر طويلا ففي سنة ١٣٩٠، وقبل وفاة الإمبراطور يوحنا الخامس باليولوج بعام واحد أغتصب يوحنا السابع - نجل أندرونيكوس الرابع - العرش، فقام مانويل بالاستعانة بالجنود البنادقة وأوقع الهزيمة بجيوش يوحنا السابع، وأعيد الإمبراطور يوحنا الخامس باليولوج إلى الحكم مرة أخرى. وعلى الرغم من استعادة الإمبراطور يوحنا الخامس لعرشه، إلا أن السلطان بايزيد الأول العثماني أخذ مانويل كرهينة وأقام في بلاطه بمدينة بورصة، وقد أجبر على الاشتراك في الحملة العسكرية العثمانية ضد مدينة فيلادلفيا آخر معاقل البيزنطيين في الأناضول وانتهت الحملة بفتح العثمانيين للمدينة. في سنة ١٣٩١. توفي الإمبراطور يوحنا وبمجرد سماعه للنبأ ترك مانويل بلاط السلطان وذهب إلى القسطنطينية لتسلم مقاليد الحكم فعمل على تنظيم شؤونها والقضاء على الزعماء الموالين ليوحنا السابع وإن كانت العلاقات بينهما قد تحسنت فيما بعد. في سنة ١٣٩٤ ضرب العثمانيون الحصار على القسطنطينية واستمر الحصار خمس سنوات وكادت المدينة أن تسقط لولا مهاجمة تيمورلنك لأملاك العثمانيين في الأناضول فاضطر بايزيد إلى رفع الحصار ومواجهة جيش تيمورلنك الزاحف صوب أنقرة وتقابل الجيشان هناك وانهزم العثمانيون في معركة أنقرة ودمر جيشهم بالكامل وأسر بايزيد ومات في الأسر، وبذلك نجت الإمبراطورية من الفناء وفي سنة ١٤٠٢: وأثناء الحصار سلم مانويل مقاليد الحكم مؤقتاً ليوحنا وسافر إلى الغرب طالبا الدعم المادي والعسكري ضد العثمانيين، فزار الإمبراطورية الرومانية وزار إنجلترا وذهب إلى فرنسا حيث استقبله الملك شارل السادس وأمر بإرسال ست سفن تحمل ١٢٠٠ رجلا للدفاع عن القسطنطينية ضد هجمات العثمانيين، وبينما مانويل منشغلا بزيارته للمدن الأوروبية، قام سيجسموند ملك المجر وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة بإعلان الحرب الصليبية على العثمانيين وتقابل الجيشان الصليبي والعثماني في معركة نيقوبولس حيث تعرض الجيش الصليبي لهزيمة منكرة وكاد العثمانيون أن يجتاحوا المجر لولا الخطرالتيموري الذي تقدم ذكره. وبعد هزيمة العثمانيين في معركة أنقرة دب الخلاف والنزاع بين أعضاء الأسرة العثمانية فاستغل مانويل الوضع واستولى على سالونيك وكافأ مانويل يوحنا على إخلاصه بأن عينه والياً عليها، كما عمل مانويل على تحصين إمارة المورة وترميم حصونها وعمل على توسيع رقعتها على حساب بقايا المملكة الاتينية. وفي سنة ١٤٢٤ أجبر مانويل على دفع الجزية مجددا للعثمانيين، وفي يوليو ١٤٢٥ توفي الإمبراطور مانويل وكان قد

أَلَّفَهُ وَكَتَبَهُ

الفقِيرُ إِلى عَفْو رَبِّهِ

الشَّيْخُ الدُّكْتورُ/ عَبْدُ الرَّحْمن بْنُ حَسَنِ بْنِ نَفِيسَةَ

صَاحِبُ مُؤَسسَة البُحوث والدِّراسات الفقْهيَّة وَعلُوم اَلقُرآن الكرِيم (الوقْفيَّة)،

وَمَجلَّة البُحوث الفقْهيَّة المعاصرة

-غفر الله لَه، ولوالديْه، وذرِّيَّته، وإخوانه والْمسْلمين-

عهد قبل وفاته بقليل بولاية العهد لولده يوحنا الثامن باليولوج. المرجع: ويكبيديا الموسوعة الحرة.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه ورسوله الأمين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحابته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فهذه رسالة موجزة للرد على مقولة الإمبراطور البيزنطي (مانويل الثاني)، الذي ضاقت نفسه ذرعا بما كان يراه من انتشار الإسلام على حدود أوربا فلم يتبع الكتاب الذي يؤمن به، وما ورد فيه من البشارة برسول الله محمد ﷺ وتجديده للرسالات السماوية، وآخرها رسالة عيسى عليه السلام.

ومع كل ما فاضت به نفسه من الإساءة لرسول الهدى محمد ﷺ ينبغي أن نشير إلى العلاقة التاريخية بين المسلمين والنصارى؛ فرغم ما تعرضت له هذه العلاقة من المصاعب التي وصلت إلى حد الصدام بفعل ظروف تاريخية تداخلت فيها المصالح والتعصب من (بعض) النصارى ضد دين الإسلام - رغم هذا كله فإن العلاقة بين المسلمين والنصارى، تظل مجالا للتحاور في إطار التفاهم والتآخي الإنساني، والبعد عن التعصب والكراهية، ووجوب الاعتراف بدين الإسلام وحضارته.

إن هذا التحاور ليس ضروريا بحكم المصالح المشتركة فحسب بل

بحكم الترابط والجغرافيا العضوية؛ فبلاد المغرب العربي مجاورة لأوربا، والعديد من بلاد المشرق العربي تقع على الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط المقابلة للضفة الشمالية الأوربية. ناهيك أن أوربا لم تعد للأوربيين وحدهم؛ بل أصبحت ملكًا لكل مواطنيها بصرف النظر عن عقائدهم؛ ففي فرنسا وحدها خمسة ملايين مسلم وفي البلدان الأخرى من القارة ملايين من المسلمين يشاركون في مسيرة القارة وحضارتها.

وأيا كانت الأسباب ومجالات الاختلاف بين المسلمين والأوربيين، ينبغي أن نعترف بأن الأوربيين صنعوا في الزمن المعاصر، حضارة مادية مشهودة سواء في الصناعة والطب والهندسة أو في مختلف العلوم الأخرى، وقد شارك فيها المسلمون بالفكر والجهد. مثلهم في ذلك مثل غيرهم من الأجناس والإثنيات والطوائف. كما ينبغي أن نعترف بأن من النصارى في عمومهم سواء في أوربا أو غيرها رجالا ونساءً يؤمنون بالسلام والتآخي الإنساني بعيدا عن التعصب والكراهية والحروب.

كما يؤمنون باحقاق الحقوق لأصحابها ومناصرة المظلومين والمستضعفين، فهؤلاء يجب أن نقدر جهودهم وألا نبخسهم هذه الجهود لقول الله عزوجل ﴿وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ﴾ [الأعراف:٨٥].

محاضرة بابا الفاتيكان عن الخلاف التاريخي والفلسفي بين الإسلام والمسيحية:

ألقى بابا الفاتيكان (بيندكت) السادس عشر في الثاني عشر من شهر

سبتمبر عام ٢٠٠٦م، محاضرة في جامعة (رينسبرج) بولاية (بافاريا) في (ألمانيا) بعنوان «**الإيمان والعقل والجامعة وذكريات وانعكاسات**»

(**Faith، reason and the university and reflections**)

وقد دار مضمون هذه المحاضرة في غالبه حول الخلاف التاريخي والفلسفي، بين الإسلام والمسيحية في العلاقة التي يقيمها كل منهما بين الإيمان والعقل، واستشهد بكتاب عنوانه: **(حوارات مع مسلم المناظرة السابعة)** قيل: إن مؤلفه (الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني).

وأشار (البابا) إلى ما دار بين هذا الإمبراطور، ومثقف فارسي حول المسيحية والإسلام، وحقيقة كل منهما خلال إقامته بالمعسكر الشتوي بالقرب من أنقره عام ١٣٩١م، وأن الإمبراطور هو الذي سجل ذلك الحوار خلال حصار القسطنطينية بين العامين ١٣٩٤م - ١٤٠٢م،

وهذا ربما -كما يقول البابا- يعلل سبب ذكر حججه بالتفصيل، دونما اهتمام لافت بإجابات العالم الفارسي. كما أشار إلى أن الحوار يتوسع إلى ما وراء حدود البنى العقدية في الإنجيل والقرآن، ليركز بخاصة على صورة الله والإنسان، راجعا عندما يكون ذلك ضروريا، إلى العلائق بين "الشرائع الثلاث": العهد القديم والعهد الجديد والقرآن.

وقال البابا: في هذه المحاضرة (أريد أن أناقش نقطة واحدة – ربما كانت هامشية في الحوار المذكور نفسه - هي سياقات علاقة "الإيمان والعقل" وقد وجدت أنه من الممكن أن يكون ذلك السياق الحواري مفيدا في تأملاتي حول المسألة)[1].

في المحادثة السابعة (من الجدال..) يعالج الإمبراطور موضوع الجهاد (الحرب المقدسة). ومن المؤكد أن الإمبراطور كان يعرف الآية القرآنية (٢:٢٥٦) والتي تقرر أنه ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦]. وسورة البقرة هذه إحدى السور القرآنية المبكرة، عندما كان (النبي) محمد ما يزال بدون قوة ونفوذ كما يرى الخبراء، وواقعا تحت التهديد،

---

(١) من محاضرة بابا الفاتيكان بجامعة بون الألمانية يوم ١٢ سبتمبر ٢٠٠٠م، بعنوان «العقل والإيمان في التقاليد المسيحية والحاضر المسيحي»، المنشورة في الوسائل الإعلامية المختلفة.

لكن من الطبيعي أن يكون الإمبراطور عارفا بالتعاليم الإسلامية التي تطورت فيما بعد وسجلها القرآن، بشأن الحرب المقدسة، وبدون مقدمات تفصيلية حول الفروق في التعامل مع "أهل الكتاب والآخرين "المشركين"، يلتفت الإمبراطور إلى محاوره بشكل مفاجئ وقاسٍ طارحا السؤال الأساسي في العلاقة بين الدين والعنف بشكل عام: يقول الإمبراطور: «أرني ماهو الجديد الذي أتى به محمد، وسوف تجد أشياء كلها شريرة وغير إنسانية، من مثل أمره بنشر الدين بالسيف)» (هكذا قال)[1].

* ثم يمضي الإمبراطور – كما يقول البابا - شارحا بالتفصيل الأسباب التي تجعل من نشر الإيمان بالعنف تصرفا غير عقلاني، لا يتفق العنف مع الطبيعة الإلهية، ولا مع طبيعة الروح: « لا يحب الله سفك الدم، والتصرف غير العقلاني مناقض لطبيعة الله».

«إن الحجة البارزة في هذا الجدال ضد الإرغام على الإيمان أن الداعية الذي يتصرف بخلاف العقل، إنما يتصرف بخلاف طبيعة الله».

(١) المرجع السابق.

ويلاحظ البروفسور خوري[١] معلقا: بالنسبة للإمبراطور البيزنطي ذي الثقافة الفلسفية الإغريقية: فإن هذا الأمر بديهي.

«أما في تعاليم الإسلام فإن الله سبحانه متعال علوا مطلقا، كما أن إرداته ليست مقيدة أو متعلقة بأي مبدإ آخر بما في ذلك مقاييس العقل نفسه. وهنا عاد خوري للاقتباس من دارسٍ فرنسي معروف للإسلاميات، هو روجيه أرنالديز ذكر عن ابن حزم (الأندلسي) أن الأخير ذهب بعيدا في (تنزيه) الله إلى حدود القول إن الله سبحانه ليس مقيدا حتى بكلمته (أي بوعده ووعيده)، وليس هناك ما يوجب عليه حتى إنزال الوحي والحق والهدى لنا، وهو عزوجل إن شاء، وبمقتضى هذا الفهم، فقد تكون عبادة الأوثان داخلة ضمن المشيئة الإلهية»[٢].

ثم قال البابا: (إن إيمان الكنيسة ظل يؤكد دائما أنه بين الله والإنسان، بين الخالق الأبدي وعقلنا المخلوق، هناك دائما قياس حقيقي، وبحسب هذا التوجه فإن الاختلاف أو اللا اشتراك يبقى قائما، ولكن ليس إلى حدود إلغاء القياس ولغته)[٣].

---

(١) تيودور خوري ألماني، وأصله لبناني، متخصص في علم اللاهوت، وقد نشر كتاب الإمبراطور الصليبي المشار إليه.

(٢) من محاضرة بابا الفاتيكان بجامعة بون الألمانية يوم ١٢ سبتمبر ٢٠٠٦م، تحت عنوان: «العقل والإيمان في التقاليد المسيحية والحاضر المسيحي»، المنشورة في الوسائل الإعلامية المختلفة.

(٣) المرجع السابق.

«إن الله سبحانه لا يصير مقدسا أكثر، إذا أبعدناه عنا في إرادوية مفرطة». (انتهى كلامه)[1]. هذه مقاطع من محاضرة بابا الفاتيكان، وبدراستها يتبين أنها تقوم على **ثلاثة محاور هي**:

أولا- إيراد مقولة الإمبراطور إمانويل الثاني المنطوية على الإساءة لرسول الله محمد ﷺ.

ثانيا- الإيهام أن دين الإسلام يقوم على العنف.

ثالثا- أن الديانة المسيحية تقوم على العقل والتحاور خلافا وللإسلام.

وبيانا للحق سنورد الرد على هذه المحاور بإيجاز.

التعرض لرسول الله محمد ﷺ بالإساءة: ويحكم هذه الإساءة التعصب والكراهية، وهذا ليس بالأمر المستحدث من قبل (بعض) النصارى؛ فمنذ مجيء رسالة رسول الله محمد ﷺ وهذا البعض يقفون منها موقف المعادي، رغم ما في كتابهم من البشارة بنبوته ورسالته -عليه الصلاة والسلام-. والخلاف بين المسلمين والنصاري خلاف على عقيدة التوحيد؛

فالمسلمون بما جاءهم من ربهم على لسان نبيهم ورسولهم محمد ﷺ يؤمنون أنه لا إله في الوجود يعبد بحق، إلا إله واحد، هو الله، وأنه لا

(١) المرجع السابق

يشركه في هذا الوجود لا ملك من الملائكة، ولا نبي من الأنبياء، ولا رسول من الرسل، ولا أحد من البشر، وأن من اعتقد هذه الشراكة، يعد عقيدةً مشركا، يبعده شركه عن مغفرة الله كما قال عزوجل: ﴿إِنَّ اللَّه لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾ [النساء:٤٨].

وهذه العقيدة هي عقيدة كل الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله إلى خلقه منذ أن أنزل أبيهم آدم إلى الأرض؛ فنبي الله نوح قال لقومه: ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيم﴾ [الأعراف:٥٩].

ونبي الله هود قال لقومه: ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّه مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُون﴾ [الأعراف:٦٥]. وقال بهذه الكلمات نبي الله صالح وشعيب، وكل الأنبياء والرسل وقال بهذا عيسى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَاءِيلَ اعْبُدُواْ اللَّه رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللُّه عَلَيهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة:٧٢]. وقال عزوجل لنبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُون﴾ [الأنبياء:٢٥].

هذه هي عقيدة المسلمين في وحدانية الله، وليس الأصل فيها الأمر الإلهي، المقتضي حكما: أن الكون علوه وسفليه، ملك لإله واحد، هو الله، يتصرف في تسييره وتنظيمه، كما يشاء فحسب، بل إن العقل يقتضي ألا

يكون في هذا الكون إلا هذا الإله وحده؛ لأن وجود غيره معه مستحيل وممتنع؛ ففي الأمثلة المادية البسيطة -ولله المثل الأعلى - يمتنع عقلا أن يقود الطائرة أو السفينة أو القطار قائدان في وقت واحد؛ لأن طبيعة القيادة وضروراتها ومسلماتها، تقتضي عقلا أن تكون لقائد واحد دون غيره، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]. ومن هنا فإن ركاب السفينة أو الطائرة أو القطار ينظرون إليه، بوصفه المسير لمركبتهم بحكم مهارته، وقدرته على نجاتهم في حال شعورهم بالخطر. وليس هذا حال العقل فحسب، بل حال الفطرة السليمة الملازمة للعقل؛ فالطفل -ولله المثل الأعلى- لا يتعلق إلا بأبيه، ليس لأنه عايشه بإحساسه الفطري منذ ولادته فحسب، بل إن شعوره بقربه منه، فرض عليه هذا التعلق. والإنسان حين يكتمل عقله يشعر أن له خالقًا؛ لأنه يدرك بحكم هذا العقل أنه مخلوق، وأن خلقه هذا لا يتأتى إلا من خالق قادر، يعرف من خلال عقله وفطرته، مقدار عظمته، وقدرته على الخلق.

وفي قصة إبراهيم الخليل -عليه السلام- مع قومه عبدة الكواكب ما يؤيد ذلك؛ فمع أنه كان بفطرته السليمة يؤمن بوجود خالق لا تصح العبادة إلا له وحده أراد أن يصل إلى مرحلة اليقين في إيمانه من خلال التفكر في عالمه المحسوس، فلما داهمه الليل، ورأى كوكب الزهرة مضيئا،

ظن أن هذا ربه فظل يراقبه، فلما رآه يغيب عن رؤيته، عرف أن ربه لا يغيب عن الوجود، فظل -عليه السلام- يراقب المحسوسات من فوقه، فرأى القمر أكبر من كوكب الزهرة، فظن أنه ربه، فلما رآه يغيب عن ناظره، دعا ربه أن يهديه حتى لا يضل مثلما ضل أبوه وقومه، فلما بدت له الشمس بعد أفول الليل، ظن أنها ربه؛ لاختلافها في كينونتها وضوئها عن الكوكبين اللذين أفلا، فلما غابت عن ناظره مع إقبال الليل، وصل إلى مرتبة اليقين، وهي أعلى مراتب الإيمان أن ربه أكبر من المحسوسات التي رآها، وأنه أعظم من أن يدركه البصر البشري، وأصل هذا كله ما حكاه الله عزوجل عنه بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٧٤]. ﴿وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥]. ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام:٧٦]. ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام:٧٧]. ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:٧٨]. ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٩].

إن عقيدة التوحيد عند المسلمين هي: عقيدة عيسى -عليه السلام- كما حكى الله -عزوجل- عنه بقوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:١١٧]. ولكن النصارى -أو بعضهم- ينكرون هذه العقيدة فقد جعلوه شريكًا لله في ألوهيته فتارة يقولون: إنه إله، وتارة يقولون: إنه ابن الله، وتارة أخرى يقولون: إن الآلهة ثلاثة: الله والمسيح وأمه.

وقد أبطل الله المقولة الأولى بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

كما أبطل المقولة الثانية بقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة:٣٠].

كما أبطل المقولة الثالثة بقوله تعالى: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ

انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء:١٧١]. وقوله ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:٧٣].

ولما تمادي النصارى في انحرافهم في عقيدة التوحيد، وجعلوا من خلق نبي الله عيسى من غير أب سببًا لمنازعة الله في ألوهيته، بين لهم ولعباده المؤمنين أن خلق عيسى بتلك الصفة لم يكن بدعا في كيفيته؛ بل كان مثل خلق آدم؛ فقد خلق من غير أب؛ لأن الذي خلقه قادر على ذلك الخلق ومثله، بما اقتضته حكمته وفي هذا قال عزوجل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩].

فلو كانت البنوة له جائزة – وحاشا له ذلك – لكان آدم أولى بها؛ لأن الله خلقه أولا قبل خلق عيسى كما خلقه من غير أب أو أم وخلق زوجه منه دون أم، ولكنه عزوجل نفي البنوة عن نفسه نفيا قاطعا في عدة آيات: منها قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم:٣٥]. وقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [مريم:٨٨]. ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم:٨٩]. ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم:٩٠]. ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم:٩١]. ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾

[مريم:٩٢]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد﴾ [الإخلاص:١]. ﴿اللَّهُ الصَّمَد﴾ [الإخلاص:٢]. ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد﴾ [الإخلاص:٣]، وبعد بيان الله عزوجل لنبيه ورسوله محمد ﷺ أن خلق عيسى لم يكن وحيدا في كيفيته قال له: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِين﴾ [آل عمران:٦٠]. أي أن ما قلنا لك عن كيفية خلق عيسى، وكونه مثل خلق آدم من غير أب هو الحق الذي لا مراء فيه، ويجب عليك أن تتمسك به، وأنت تحمل الرسالة والبلاغ إلى الثقلين، لدعوتهم إلى التوحيد؛ فإن جادلك أحد في هذا الحق فادعه إلى المباهلة، أي ادع باللعنة على من يكون منكما كاذبا كما قال تعالى ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِين﴾ [آل عمران:٦١].

وسبب نزول هذه الآية، أن نصارى نجران في الجزيرة العربية كانوا من أشد المتعصبين للنصرانية زمن نزول الرسالة، وقد وفدوا على رسول الله محمد ﷺ في ستين رجلًا، وقد أكرمهم -عليه الصلاة والسلام- وأنزلهم ما يستحقونه من المنزلة، ولما أرادوا الصلاة، سمح لهم بالصلاة في مسجده على قبلتهم تجاه الشرق. ومع ما كان يعرفه رؤساؤهم من كتابهم عن نبوة ورسالة رسول الله محمد ﷺ، وأن رسالته ودعوته حق

إلا أنهم أعرضوا عن هذا الحق؛ تعصبا لدينهم، بحكم ما يتلقونه من الهبات والعطايا لهم ولكنائسهم من النصارى الروم، ناهيك بما كانوا يخشونه من فقد رئاستهم لأتباعهم.

لقد حاور رسول الله ﷺ ثلاثة منهم هم: (العاقب عبدالمسيح) و(أبو حارثة بن علقمة) و(السيد الأيهم)، وكان حوارهم ينصب على شراكة عيسى وأمه لله، (تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا) ولما بقوا على مقولتهم هذه، ولم ينتفعوا بوعظ أو إرشاد، دعاهم -عليه الصلاة والسلام- إلى المباهلة -أي اللعن- على من كان منهما كاذبا فخشوا أن يكون في ذلك سبب هلاكهم، وقالوا: يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما أمرتنا به ثم خلوا بأميرهم ومرشدهم (العاقب عبد المسيح)، وقالوا له ماذا ترى فينا؟ فقال: والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمدا لنبي مرسل، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبيا قط، فبقي كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، وأنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا رسول الله ﷺ وقالوا: يا أبا القاسم: لقد رأينا ألا نلاعنك، ونتركك على دينك، ونرجع على ديننا، ولكن ابعث فينا رجلا من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من

أموالنا، فإنكم عندنا رضا[١].

ثم بعث فيهم رسول الله ﷺ (أبا عبيدة بن الجراح) أمين الأمة[٢] ليقضي بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه. ثم أمر الله نبيه ورسوله محمدا ﷺ أن يدعو أهل الكتاب عامة إلى التحاور بالحق والعدل في أمر العبادة، وأن يكون هذا التحاور مشتركا بينهم وبين المسلمين سواء بسواء، وأن يرتكز هذا الحوار على أن العبادة لله وحده ونفي كل شراكة له في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه أو صفاته سواء كانت هذه الشركة لملك، أو نبي، أو رسول، أو وثن، أو صليب، أو أحد من البشر. وفي الحال التي يصر فيها أهل الكتاب على عدم التحاور على هذا الأسس فعلى المسلمين أن يعلنوا لهم ولكل الملأ تمسكهم بها، وهو ما ذكره الله في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُون﴾ [آل عمران:٦٤].

وفي ظلال هذا الوحي، والأمر الإلهي بالتحاور، كان رسول الله يؤكد في تحاوره أن الإسلام ليس دين قوم دون آخرين، أو دين أمة دون

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٥٥-٢٦٦، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ١ ص٣٤٨.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٢٦٦.

أخرى، أو جنس دون جنس، بل هو دين لكل الناس، أنَّى كانوا في أي زمان، وحيثما كانوا في أي مكان، حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ لأن الله أمره أن يقول للناس: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]. كما أمره بدعوتهم والشهادة عليهم في قوله عز ذكره: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥]، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٦]، وبهذه الأوامر ألقى الله عليه واجب تبليغ رسالته، فكان من واجبه إذا مخاطبة الملوك في زمانه، وكان أشهرهم ملك الحبشة، وملك القبط، وقيصر الروم وكسرى فارس، فأرسل لكل واحد منهم رسالة يدعوه فيها بكل أدب إلى دين الله.

ففي رسالته إلى ملك الحبشة قال: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم أنت فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى

الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عزوجل...)[١].

فلما قرأ النجاشي الرسالة قال لحاملها: أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب، وأن بشارة موسى براكب الحمار، كبشارة عيسى براكب الجمل، وأن العيان ليس بأشفى من الخبر، ثم كتب إلى رسول الله الكتاب التالي: «بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله، من النجاشي أصحمة، سلام عليك يانبي الله، من الله ورحمة الله وبركاته، الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله، فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض، إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت تُفروقًا إنه كما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابك، فأشهد أنك رسول الله صادقًا مصدقًا وقد بايعتك، وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين»[٢].

وفي رسالته -عليه الصلاة والسلام- إلى المقوقس ملك مصر والإسكندرية: (بسم الله الرحمن الرحيم، إني أدعوك بدعاية الإسلام،

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة لمحمد حميد الله ص١٠٠.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم ج ٤ ص ٦٥.

وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُون﴾ [آل عمران:٦٤][١].

فلما قرأ الرسالة قال لحاملها: «إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه»، فرد عليه حامل الرسالة بقوله: «لعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قومًا فهم من أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركه هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به». وقد أجابه المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء، والإخبار بالنجوى، وسأنظر. وفي كتابه إلى رسول الله ﷺ قال: إنه قرأ الكتاب، وفهم ما فيه وما يدعو إليه رسول الله، وإنه علم أن نبيا بقي وكان يظن أنه يخرج بالشام[٢].

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة لمحمد حميد الله ص ١٣٥-١٣٦.

(٢) زاد المعاد لابن القيم ج ٤ ص٦٦-٦٧.

وفي مداخلة جرت بين هرقل وبين أبي سفيان ابن عم رسول الله ﷺ -وكان يومئذ غير مسلم- قال أبو سفيان: كنت في الشام فوجدنا رسول قيصر ببعض الشام، فَانْطُلِقَ بي وبِأَصْحَابِي، حتَّى قَدِمْنَا إيلِيَاءَ، فَأُدْخِلْنَا عليه، فإذا هو جالس في مجلس ملكه، وعليه التاج، وحوله عظماء الروم.

فقال لترجمانه: سلهم أيهم أقرب نسبًا إلى هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قال أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم إليه نسبًا. قال: ما قرابة ما بينك وبينه؟ فقلت: هو ابن عم. وليس في الركب يومئذ أحد من بني عبد مناف غيري. فقال قيصر: أدنوه. وأمر بأصحابي فجعلوا خلف ظهري عند كتفي. ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه إني سائل هذا الرجل عن الذي يزعم أنه نبي، فإن كذب فكذبوه. قال أبو سفيان: والله لولا الحياء يومئذ من أن يأثر أصحابي عني الكذب لكذبته حين سألني عنه، ولكنّي استحييت أن يأثروا الكذب عني فصدقته.

ثم قال لترجمانه: قل له كيف نسب هذا الرجل فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول أحد منكم قبله؟ قلت: لا. فقال: كنتم تتهمونه على الكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. قال: فيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل

يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن الآن منه في مدة نحن نخاف أن يغدر. قال أبو سفيان: ولم يمكني كلمة أدخل فيها شيئًا أتنقصه به -لا أخاف أن تؤثر عني- غيرها. قال: فهل قاتلتموه أو قاتلكم؟ قلت: نعم. قال: فكيف كانت حربه وحربكم؟ قلت: دولًا وسجالًا: يدال علينا المرة وندال عليه الأخرى.

قال: فماذا يأمركم به؟ قلت: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة، والصدقة، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة... فقال هرقل: وهذه صفة نبي قد كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أعلم أنه منكم، وإن يكُ ما قلت حقًا فيوشك أن يملك موضع قدمي هاتين، ولو أرجو أن أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه. قال أبو سفيان: ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرئ، فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم.

من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين، ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ

يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُون﴾ [آل عمران:٦٤][(١)].

قال أبو سفيان: فلما أن قضى مقالته علت أصوات الذين حوله من عظماء الروم وكثر لغطهم، فلا أدري ماذا قالوا؟. وأمر بنا فأخرجنا. فلما أن خرجت مع أصحابي وخلوت بهم قلت لهم: هذا ملك بني الأصفر يخافه. قال أبو سفيان: والله ما زلت ذليلا مستيقنًا بأن أمره سيظهر، حتى أدخل الله قلبي الإسلام وأنا كاره»[(٢)].

وفي رسالته -عليه الصلاة والسلام- إلى كسرى ملك فارس قال: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس».فلما قرأ كسرى الكتاب مزقه

---

(١) سورة آل عمران الآية ٦٤، ومجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة لمحمد حميد الله ص١٠٩.

(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة، برقم (٢٩٤١) فتح الباري، ص ١٢٨ - ١٣٠.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: (مزق الله ملكه)[1]. وقد استجاب الله دعوته فتمزق ملكه وأصبحت بلاد فارس -ولله الحمد- جزءًا عظيمًا من بلاد الإسلام. هذه نماذج يسيرة من رسائل رسول الله محمد ﷺ إلى ملوك العالم في زمانه يذكرهم فيها بوحدانية الله عزوجل في عبادته، ويبلغهم رسالة الله التي أوجب عليه إبلاغها في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة:٦٧].

ويبين لهم أن ما يدعو إليه، هو ما دعا إليه الأنبياء والرسل من قبله كموسى وعيسى، ولم يكن في هذه الرسائل تهديد أو وعيد أو عنف كما زعم الإمبراطور البيزنطي وتابعه في زعمه بابا الفاتيكان؛ فقوله -عليه الصلاة والسلام- «أسلم تسلم» إشارة إلى أن في إسلامه سلامًا له ولأتباعه من الإثم والخطيئة؛ لأن دين الإسلام أصبح الدين الواحد، والدين الكامل، والدين الشامل، والأصل فيه قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]. كما أنه الدين الناسخ لجميع الأديان، وخاتم الرسالات كلها، والأصل فيه

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ج ٤ ص ٦٥، ومجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة لمحمد حميد الله ص ١٤٠، عن عبد الله بن عباس: أنّ رَسولَ اللهِ ﷺ: بَعَثَ بكِتابِهِ إلى كِسْرى، مع عبدِ اللهِ بنِ حُذافَةَ السَّهْمِيِّ فأمَرَهُ أنْ يَدْفَعَهُ إلى عَظِيمِ البَحْرَيْنِ، فَدَفَعَهُ عَظِيمُ البَحْرَيْنِ إلى كِسْرى، فَلَمّا قَرَأَهُ مَزَّقَهُ، فَحَسِبْتُ أنّ ابْنَ المُسَيِّبِ، قالَ: فَدَعا عليهم رَسولُ اللهِ ﷺ أنْ يُمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ.. أخرجه البخاري برقم (٤٤٢٤).

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾ [آل عمران:١٩]. وقوله -عز ذكره-: ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠].

ومع مرور الزمن وسريان الرسالة في الآفاق فهم بعض النصارى حقيقتها، وأنها جاءت لهداية الإنسان بعد أن ضل سواء السبيل، وغشيته حمى الجاهلية وضلالها وظلامها فآمن منهم من آمن بالإسلام بعد أن هداه الله إليه، وبقي منهم من بقي على دينه، غير ملوم عليه، أو مكره على تركه، وفي هذا قال الله عزوجل: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]. وقال لنبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِين﴾ [يوسف:١٠٣]. والحق – والحق يقال – أن من النصارى الأقدمين من وقف من الإسلام موقف الإيمان به وبنبيه، وإن لم يترك دينه لاعتبارات تداخلت فيها ظروف الزمان والمكان.

وسبب هذا الإيمان يرجع إلى عدة أسباب منها:

فهمهم لإنجيلهم وما فيه من البشارة بنبوة ورسالة رسول الله ﷺ فقد مدحهم الله بقوله –تعالى-: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران:١٩٩]. وقوله –تعالى-: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ

الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص:٥٢]. ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص:٥٣]. ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص:٥٤].

ومن هذه الأسباب: إيمانهم بما كان عيسى -عليه السلام- يدعو إليه من المحبة والرحمة مما جعلهم يتبعونه في هذه الصفات، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً﴾ [الحديد:٢٧].

ومنها: أن القسس والرهبان لا يطمعون عادة في مال أو جاه أو سلطة مما يجعلهم أكثر مودة وقربا للمؤمنين كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة:٨٢]. ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة:٨٣]. أما البعض الآخر من النصارى فلم يكتف بعدم قبول الرسالة بل ظل يحاربها ويتبع في ذلك كل السبل بما في ذلك غزو بلاد المسلمين، وتقتيلهم وتشريدهم.

وهذا البعض فريقان:

فريق قديم عرفناه في الحروب الصليبية وهذه الحروب لا تزال في الذاكرة بكل ما مثلته من الغزو الاستعماري؛ فمنذ أن تسلم (الكسيوس كوفين) عرش إمبراطورية بيزنطة عام ١٨٠١م رأى أنه لابد من غزو بلاد المسلمين، فاستغاث بالبابا (غريغوري السابع)، فوجد هذا في هذه الاستغاثة فرصة كبيرة هي إخضاع الكنيسة الشرقية لسلطانه، كما وجد أن ذلك لن يتيسر له إلا إذا قادت الكنيسة الغربية المعركة ضد المسلمين (الكفار)، ولما لم يتحقق لغريغوري حلمه بترأس الحملة الصليبية إلى الشرق؛ بسبب هلاكه وجه الإمبراطور (اليكسيوس كوفين) نداء استغاثة إلى خلَفه البابا (أدربان) الثاني، فذهب هذا إلى فرنسا يجهز لهذه الحملة، وفي جمع غفير من النصاري المتعطشين إلى حرب المسلمين قال كلمته الشهيرة: بأمر الله يجب أن تتوقف العمليات الحربية بين المسيحيين في أوربا، وعلى هؤلاء أن يتجهوا بأسلحتهم إلى هزيمة الكفرة (المسلمين).

Let the truce of God be observed at Home and let the arms of the Christian be directed to conquering the infidils.

ثم صاح في الجموع بقوله: لقد كنتم تحاولون من غير جدوى إثارة الحروب والفتن فيما بينكم، فالآن اذهبوا وازعجوا البرابرة وخلصوا

البلاد المقدسة من أيدي الكفار وامتلكوها لأنفسكم؛ فإنها كما تقول التوراة تفيض لبنا وعسلا، ثم بشرهم بغفران ذنوبهم إذا اشتركوا في هذه الحرب، وما إن انتهى من خطبته الشهيرة حتى صاح المستمعون له يلبون نداءه بعد أن حملوا الصلبان واستعدوا لغزو بلاد المسلمين.

وحتى تأخذ دعوة البابا لهذه الحملة أبعادًا جماعية في أوربا طاف بمدن أوربا يشعرها بهذه الحملة ويدعوها إلى المشاركة فيها بكل قوة وكان له ما أراد؛ فقد تنادى الناس في فرنسا وإيطاليا وأسبانيا لجمع القوة من الخيول والسفن الحربية، وأنواع العتاد فتشكلت الحملة من الرجال، الذين يوصفون بالشجاعة والمغامرة، والمتشوقين إلى الشرق، والحج إلى أرض الميعاد، ناهيك بمن كانوا يسعون إلى مغفرة ذنوبهم وخطاياهم بفعل ما سيحصلون عليه من صكوك الغفران، بسبب مشاركتهم في الحرب ضد الكفار (المسلمين) كما يزعمون. وفي طريقهم إلى الشرق عاثوا في الأرض الفساد، مما دل على كراهيتهم لدين الإسلام ورسوله. ومن الأمثلة على هذا الفساد الذي لا يعرف التاريخ الغابر له مثيلا ما حدث في القدس حين احتلوها وقد ذكر الأستاذ (Wells) **ما يلي:**

حدثت ببيت المقدس مذبحة رهيبة وكان دم المقهورين يجري في الشوارع حتى لقد كان الفرسان يصيبهم رشاش الدم وهم راكبون، وعندما

أرخى الليل سدوله جاء الصليبيون وهم يبكون من فرط الفرح. وخاضوا الدماء التي كانت تسيل كالخمر في معصرة العنب واتجهوا إلى الناووس ورفعوا أيديهم المضرجة بالدماء يصلون لله شكرا(١).

أما (جوستاف لوبون) فوصف هذه المجزرة بقوله: «لقد أفرط قومنا في سفك الدماء، حيث لجأ كثير من المسلمين والنصارى واليهود، وكانت جثث القتلى تسبح في محيط من الدماء ولم يكتف قومنا الصليبيون الأتقياء بضروب العسف والتدمير والتنكيل التي اتبعوها، بل عقدوا مؤتمرا أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج النصارى الذين كان عددهم ستين ألفا فأفنوهم عن آخرهم في ثمانية أيام ولم يستثنوا منهم امرأة ولا طفلا ولا شيخا(٢).

الفريق الثاني من بعض النصاري المعادين للإسلام فريق معاصر لا يزال يعيش عقلية الفريق الأول من الصليبيين. لقد كنا نريد نسيان - مقولة الصليبي (رينالد) – الذي كان أميرا على الكرك - للمسلمين حين يريد قتلهم (قولوا لمحمد يخلصكم)، وكنا نقول لعل هذا التفكير قد انتهى،

(١) Shert History of the Middle East p. 74
(٢) حضارة العرب لجوستاف لوبون، ص٤٠٠.

وأن الإنسان لابد أن يعيش حياة التسامح والأمن والسلام، وتبادل المصالح بعيدا عن هواجس الحروب وآلامها.

وما نلبث أن نفاجأ بأن هذه العقلية تكمن في النفوس فالجنرال الفرنسي (غورو)[١] عندما تغلب على الجيش العربي السوري في معركة (ميسلون) الشهيرة ذهب في الحال إلى قبر صلاح الدين الأيوبي -رحمه الله- وقال قولته الشهيرة (الآن عدنا يا صلاح الدين)[٢]. ورغم كل ما حدث كنا نظن أن الاحتلال والحروب الاستعمارية ستنتهي خاصة بعد أن تغير العالم، وتأسست منظمة الأمم المتحدة، واتجه العالم إلى التعايش السلمي في إطار المصالح والعلاقات الإنسانية إلا أن هذا الظن كان وهما، بالنسبة لعلاقات المسلمين مع هذا الفريق المتعصب من النصارى؛ فقد خطط هذا الفريق بكل وسائل التخطيط لإقامة كيان يمثله بعد رحيله في استمرار الحروب والحصار والهيمنة على العرب المسلمين في منطقة الشرق الأوسط.

وقد تمثل هذا الحصار في إنشاء دولة إسرائيل بزعم إنشاء وطن لليهود بعد أن تعرضوا للهلاك في ألمانيا وأوربا. ولم يكن هذا الإنشاء

---

(١) هو الجنرال الفرنسي هنري جوزيف غورو كان قائدا عسكريا قاد الجيش الفرنسي في نهاية الحرب العالمية الأولى وكان مندوب الاحتلال الفرنسي في لبنان وسوريا وأشرف على انفصال لبنان من سوريا عام ١٩٢٠م، بموجب اتفاقية سايكس – بيكو بين فرنسا وبريطانيا، توفي سنة ١٩٤٦م

(٢) البيان في الرد على بابا الفاتيكان، لجمال محمد محمود ص١٢.

رحمة باليهود، ولا بما قيل عن توطينهم في مكان له بعد تاريخي بالنسبة لهم؛ فهم لم يرحموهم في تشردهم بل قتلوهم في أسبانيا وأروبا، لأنهم يعتبرونهم قتلة المسيح وأصحاب السلالة السامية النجسة. وهذا الفريق المتعصب من النصاري ضد المسلمين يعرف أن الذين جندهم لإقامة هذا الكيان لم يكونوا من الجنس اليهودي بل كانوا أشتاتا من الخزر(١) والأوروبيين المعتنقين للفكر الصهيوني الذي تأسس في أوربا بقصد السيطرة على العالم بعد بث الرعب، والخصومات في أنحائه، وهدم قيم الإيمان فيه. أما اليهود في سلالاتهم الحقيقية وتراثهم وثقافتهم، فقد انصهروا في الشرق بعد أن تعاقبت عليهم المحن، وما كان لهم من ملاذ في هذه المحن سوى المسلمين، الذين يجتمعون معهم في بعض الخصائص، وكان هؤلاء طيلة عهودهم يرفضون أن يكون لهم دولة يعتدون بها على من عاشوا معهم آلاف السنين. اسألوا (يهود السامرة)(٢)

---

(١) الخزر هم شعوب استوطنت حوض نهر قزوين، واعتنقت اليهودية في القرن التاسع الميلادي، ويهود الخزر شكلوا مجموعة قليلة في دولة الخزر، ثم اختفوا من مسرح التاريخ بعد زوال دولتهم، بينما الغالبية العظمى من شعب الخزر كانوا يدينون بديانات أخرى غير اليهودية.

(٢) طائفة يهودية ينكرون قدسية أسفار الأنبياء والمكتوبات من العهد القديم ولا يعترفون بغير الأسفار الخمسة إلى جانب سفر يوشع، يأخذون بظاهر نصوص التوراة، وسموا بالسامريين نسبة إلى سامرة، أثبتوا نبوة موسى وهارون ويوشع بن نون عليهم السلام، وأنكروا نبوة من بعدهم إلا نبياً واحداً، ويقولون إن مدينة القدس هي نابلس، انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ج١ ص٢٥٠٣.

عما يقولونه عن إسرائيل، واسألوا اليهود الذين لم يؤمنوا بالفكر الصهيوني، عما يقولونه كذلك عن إسرائيل، إنهم يتبرؤن منها أشد البراءة، ويرونها خطيئة تتعارض مع تراثهم الديني. أما نحن فنراها فكرة وخطة استعمارية وضعها الفريق المتعصب من النصارى لتكون ركيزة له تجعل هذه المنطقة رهنا له فيما يقول ويفعل، ويتحقق له من خلالها منافع سياسية واقتصادية ودينية كما كان الهدف من الحروب الصليبية القديمة، وهو ما بينه (أيوجين روستو) مستشار الرئيس الأمريكي (ليندون جونسون) ورئيس قسم التخطيط في وزارة الخارجية الأمريكية في عام ١٩٦٨م بقوله: يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست خلافات بين دول أو شعوب، بل هي خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية، لقد كان الصراع ممتدًا بين المسيحية والإسلام منذ القرون الوسطى، وهو مستمر حتى هذه اللحظة بصورة مختلفة، ومنذ قرن ونصف خضع الإسلام لسيطرة الغرب، وخضع التراث الإسلامي للتراث المسيحي، إن الظروف التاريخية تؤكد أن أمريكا إنما هي جزء مكمل للعالم الغربي: (في فلسفته، وعقيدته ونظامه، وذلك يجعلها تقف معادية للعالم الشرقي الإسلامي، بفلسفته

وعقيدته المتمثلة بالدين الإسلامي، وإن قيام إسرائيل هو جزء من هذا المخطط وأن ذلك ليس إلا استمرار للحروب الصليبية(١).

قلت: للأسف فإن هذا الفريق لا يزال يعيش تلك العقلية، ومع الغابرة من الحروب الصليبية بكل أثقالها وآلامها، فيرى في المسلمين عدوًا تجب مقاومته ومعاداة دينه وحضارته.

ونرى هذا العداء في وسيلتين متلازمتين دعوية وروحية.

الوسيلة الدعوية:

وتتمثل هذه الوسيلة في محاصرة المسلمين من خلال الإعلام وتشويه صورتهم ومحاولة طمس حضارتهم وثقافتهم، حتى ليخيل لمن يتعمق في قراءة هذا الإعلام أن المسلمين أمة متوحشة، وأنهم مجرد غزاة فقد حذر (جورج غانسفاين) السكرتير الخاص للبابا بنديكت السادس عشر، في صحيفة سودوتش ننسيتونغ أن على أوربا ألا تتجاهل الجهود التي يبذلها المسلمون لإدخال القيم الإسلامية في الغرب، مما يهدد القارة وأهلها، وقال: إن الكاثوليكية ترى ذلك جليا وأن كلمة البابا في محاضرته -المشار إليها أعلاه كان يجب أن تبدد أي فهم ساذج عن

(١) البيان في الرد على اكاذيب وضلالات بابا الفاتيكان، لجمال محمد محمود، ص١٢.

الإسلام[1]. ولم يكن أسقف مدينة كولونيا الألمانية (يواكيم ميسنر) بعيدا عن هذا القول حين قال في مقابلة إذاعية: «.. إن هجرة المسلمين خلقت شرخا في ثقافتنا الألمانية والأوربية»[2]. وليس هذا العداء مجرد عداء نظري أو دعوي فحسب؛ بل يصحبه فعل ملازم له يتمثل في محاصرة قضايا المسلمين، وتهميشها والتصدي بالرفض لأي دفاع عنها في الهيئات الدولية، كما يحدث في هذه الهيئات، وبخاصة في مجلس الأمن من استعمال حق النقض عندما يتعلق الأمر بقضية من قضايا الصراع بين العرب والصهيونية، ناهيك عن محاصرة أي نشاط أو شأن علمي يتطلع إليه المسلمون، سواء في المجال التقني في عمومه، أو العسكري في خصوصه.

الوسيلة الروحية:

وتتمثل في الخوف من المسلمين وتخويف الناس من دينهم، والتعرض لنبيهم بالإساءة، وقد بدأ هذا واضحا في تطاول وسائل الإعلام في الغرب بالكلمة والرسم على رسول الله ﷺ وعلى رسالته؛ فقد صورته بأبشع صورة، وتعرضت لرسالته بأبشع القول وأحطه، ووصفتها

(١) وقد نشرت تصريحات سكرتير البابا في الصحافة العالمية والمواقع الإلكترونية ومنها: موقع بوابة الإسلام (www.islamdor.com)، وموقع وكالة رويترز.
(٢) المرجع السابق.

بالإرهاب والقتل، كما حدث في الدنمارك والنرويج وبعض البلاد الأوربية، وذلك دون مراعاة لأدنى القيم والأخلاق. ولم يكن هذا التطاول مجرد نزوة عابرة فعلها مريض في خيالهن أو حاقد على المسلمين في ظرف زمني عابر؛ بل كانت نتاج فكر ومنهج مرسوم، أساطينه كتاب ومفكرون غربيون، عرفنا منهم سورديل (Sordell) ووات (Watt)، ولامانس (Lamans)، ودوزيه (Doze)، كما عرفنا منهم بات روبرتسون (Rebertson)، وجيري فالويل (Fal Well) وبات بوكنان (Buchanan)، وصموئيل هنتجتون (Samuel Huntington)، وبيل غراهام (Graham Bill)، هؤلاء كانوا أشد تعصبا، وأكثر حقدا على المسلمين ونبيهم، فقد أنكروا الوحي كما أنكروا النبوة ورسالة رسول الله محمد ﷺ، وكانت أدبياتهم وكتبهم حاقدة على الإسلام، وتدعو إلى تغيير عقلية المسلمين.

ومن هذه الكتابات على سبيل المثال، كتاب (أزمة الإسلام) للمؤرخ الأمريكي البريطاني الأصل (برنارد لويس) (Bernald Lewis)، وكتاب (صراع الحضارات) الذي رأى فيه مؤلفه (هيمنجتون) أن العداء للإسلام والحضارة الإسلامية، سوف يساعد بشكل كبير في تحقيق التفاف الأمريكيين حول هويتهم الوطنية، وكتاب (النوم مع الشيطان) (لروبرت

بيير) (Sleeping with the Devil R. Bear) الذي يتهجم فيه على المملكة العربية السعودية وثقافتها. وكتاب (نهاية الشر أو كيف نكسب المعركة ضد الإرهاب) لمؤلفه (ديفيد فرم) و(ريتشارد بيرل). (End To Evil. How to win the War on Terror by David Frum and Richard Perle)

ويدور حول وجوب اخضاع المسلمين الذين يعيشون في الولايات المتحدة الأمريكية، لتدقيق خاص من قبل جهات الرقابة القانونية مع الدعوة إلى أن تقوم الولايات المتحدة الأمريكية بالتخلص من بعض الحكومات الإسلامية، وعدم السماح للفلسطينيين بإقامة أي دولة لهم. وفي هذا السياق يتذكر العالم ما فعله الرسام الدنماركي (ويستر جارد) من إساءة لنبي ورسول الإسلام محمد وتحد لمشاعر المسلمين في العالم. كما يتذكر أيضًا أن اتحاد (ام ١٠٠) قد منحه في مدينة بوتسدام الألمانية جائزة الإعلام للصحفيين تقديرًا له على رسومه التي تفيض بالتعصب والكراهية نحو المسلمين ونبيهم، كما يتذكر كذلك أن عمدة مدينة بوتسدام (يان ياكوبنر) أكد أن تكريم (ويستر جارد)، بسبب إبرازه للقيم الديمقراطية الأوربية ودفاعه عنها. والمراد هنا الإساءة لرسول الإسلام الذي أرسله الله رحمة للعالمين، ووردت البشارة به في التوراة والإنجيل.

هذه الكتب والمقالات والرسوم في الصحافة الغربية – خاصة بعد حادثة الحادي عشر من سبتمر عام ٢٠٠١ (المفتعلة) - أكثر من أن تحصى في هذا الحيز. ولم يقتصر الأمر على هؤلاء فيما يسمى العقلية أفكارهم الشخصية أو حريتهم في التعبير بل كان متأصلا في الإدارة الغربية العليا فقد شارك – بكل أسف – عدد من الزعماء في الحملة ضد الإسلام وفي مقدمتهم (جورج بوش الابن)، الذي قاد الحملة الصليبية على العراق وأفغانستان ووصف تلك الحملة صراحة بـ الصليبية إضافة إلى (ديك تشيني) و(توني بلير) رئيس وزراء بريطانيا السابق الذي شارك بكل قوة في هذه الحرب، و(مارجريت تاتشر) رئيسة وزراء بريطانيا السابقة، ورئيس وزراء إيطاليا (برلسكوني). كما كان هذا العداء متأصلا في العقلية الدينية الغربية الرسمية فعلى إثر خطاب البابا بيندكت السادس عشر – المشار إليه أعلاه – توجه مائة وثمانية وثلاثون عالما من علماء المسلمين بخطاب مفتوح إلى خمسة وعشرين من زعماء وقساوسة الديانة النصرانية، يدعونهم إلى التفاهم على كلمة سواء من أجل إيجاد علاقة حسنة بين المسلمين والنصارى، وأن السلام والأمن في العالم مرهون بهذا التفاهم، وهذه العلاقة بينهما بوصفهما أكبر ديانتين في العالم، ولكن هذه الدعوة لم تجد – كما يبدو – قبولا من الفاتيكان بل إن أحد المسئولين

فيه قال: «إن من الصعب إجراء حوار ديني حقيقي مع المسلمين؛ لأنهم يعتبرون أن القرآن كلام الله بالنص ولا يقبلون مناقشة ذلك بعمق». كما أن المسئول المختص بشئون الإسلام في الفاتيكان (جان لويس ثوران) قال في مقابلة مع صحيفة (لاكروا) الكاثوليكية الفرنسية اليومية: «إن المسلمين لا يقبلون أن يناقش أحد القرآن بعمق؛ لأنهم يقولون إنه كتب بإملاء من الله..» ومع هذا التفسير الجامد – كما يقول – يكون من الصعب مناقشة فحوى الدين[1]. وهذه الممانعة الصريحة للحوار تعكس عقلية التعصب الذي لا زال يستمد جذوره من الفكر الصليبي، فإذا كان معظم رجال الدين النصارى يرون أن النصوص الدينية من عمل البشر وليست بوحي إلهي مما يجعل من المسلم به الاعتراض عليها وإعادة تفسيرها ومن جملة ذلك القرآن، فإن المسلمين يرون أن القرآن كلام الله، تكلم به على النحو الذي يليق بجلاله وعظمته وقد أنزله على نبيه ورسوله محمد ﷺ من اللوح المحفوظ كما قال -عزوجل- مخاطبا نبيه: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِين﴾ [الشعراء:١٩٢]. ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِين﴾ [الشعراء:١٩٣]. ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِين﴾ [الشعراء:١٩٤]. ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِين﴾ [الشعراء:١٩٥].

(١) نشرت هذه التصريحات عبر وكالات الأنباء والوسائل الإعلامية ومنها وكالة رويترز.

وقد حفظ الله هذا القرآن منذ نزوله فلم يستطع مزور أو مغير أو محرف تغيير حرف واحد من هذا الكتاب؛ لأن الله عزوجل قد تعهد بحفظه في قوله -عزوجل-: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج:٢١]. ﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج:٢٢].

وفي إطار إيمان النصارى أو رجال دينهم بالاعتراض على النصوص الدينية وتفسيرها، بما قد يقتضي تغييرها بالكلية، وإحلال الفكر البشري محلها، يحاول قادة الحملة ضد الإسلام تغيير مفهوم المسلمين نحو كتابهم وسنة نبيهم محمد ﷺ، وهذه المحاولة تتمثل في ثلاث صور:

الصورة الأولى: التركيز على المرأة المسلمة وتصويرها بأنها (قضية): وفي هذا التركيز الزعم زورا أن الإسلام يغمطها حقوقها وحريتها مع أنهم يعرفون أن المرأة لم تنل في أي دين أو عقيدة أو ملة مثل ما نالته في الإسلام. ففي الحضارة الرومانية لم يعترف لها بأي حقوق؛ فقبل زواجها كانت تحت وصاية أبيها دون أن يكون لها أي حق تجاهه، فإذا تزوجت أصبحت تحت وصاية الزوج، وفي كلتا الحالتين ليس لها أي تصرف بل تعد متاعًا للزوج(١).

(١) عودة الحجاب لمحمد أحمد إسماعيل المقدم، ج ٢ ص ٤٨.

وفي القرون الوسطى لم تكن حالها أحسن من حالها عند الرومان. وإيغالا في إهانتها، والحط من قدرها وإنسانيتها، كانت المؤتمرات تعقد للبحث في صفتها وخصائصها حتى قيل إنها لا تملك روحا ولا إنسانية، ولن تبعث بعد الممات كما يبعث الرجال[١]. وفي إنجلترا لم يكن للمرأة حتى القرن الثامن عشر أي حقوق شخصية في التملك[٢]. وفي فرنسا لم يعترف الفرنسيون بإنسانيتها إلا في القرن الخامس عشر، وعلى أساس أن تكون متاعا للزوج[٣]. هذا في الديانة النصرانية، أما في الديانة اليهودية فكانت المرأة محلا للّعنة؛ لأنها أخرجت آدم من الجنة[٤]. وفي جاهلية العرب قبل الإسلام كانت المرأة تقتل في صغرها خوفا من عارها على قومها[٥].

أما في الإسلام فقد بين الله في كتابه حقوق المرأة في أكثر من سورة من سور القرآن وآياته، وسمى باسم النساء سورة كاملة هي (سورة النساء)؛ ففي الخصوص جعل للمرأة حق الزواج والطلاق والإرث وكامل التصرف في أموالها من بيع وشراء وإيجار وقسمة ورهن

---

(١) المرجع السابق، ص٥٢، وحقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والقانون الدولي للدكتور محمد مصيلحي ص٥٧.

(٢) حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والقانون الدولي ص٥٨.

(٣) حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والقانون الدولي ص٥٧.

(٤) المرجع السابق ص٥٧.

(٥) عودة الحجاب ج ٢ ص ٥٧-٥٩.

ومضاربة ووقف ووصية وغير ذلك من حقوقها التي تستقل بها عن زوجها. أما في العموم فتعد المرأة في الإسلام شريكة الرجل في الحياة وفي المسئولية؛ فلها حق التعلم وحق التوظف والعمل وحق المشاركة في السياسة وحق البيعة أو ما يشبهه – ولها الحق في المشاركة في الاقتصاد والجهاد كما قال الله -عزوجل-: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّه وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة:٧١]. ولم تكن هذه الحقوق في الإسلام حقوقا نظرية مجردة، بل كانت واقعا عاشته المرأة المسلمة بكل صوره منذ عهد الرسالة؛ فقد بايعت رسول الله ﷺ في الدين والطاعة وتقوى الله تنفيذا لأمر الله -عزوجل- في قوله: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيم﴾ [الممتحنة:١٢].

وكما شاركت المرأة في البيعة، شاركت في الجهاد تؤازر الرجل، وتخلفه في رحله، وتداوي جراحه، وتقوم عليه إذا مرض، ولكن الإسلام مع كل ما أعطاه للمرأة من الحقوق، شدد على الحفاظ عليها فمنعها من الاختلاط بالرجال مالم تكن لذلك ضرورة؛ ذلك أنها في الغالب تكون

محلا لرغبة الرجل، فحتى تكون هذه الرغبة في إطار الشرعية والأخلاق أمرها الله بغض البصر عن الرجال الأجانب، وحرم عليها التبرج وإظهار زينتها إلا لزوجها، وقد أثبتت الوقائع أن كرامة المرأة وعفتها وسلامتها لا تتحقق إلا باتباع هذه الأوامر الربانية.

وفي سياق الحملة الظالمة على دين الإسلام ونبيه، وعلى المرأة المسلمة قرأنا ما قالته المبشرة (آن ميليغان): لقد استطعنا أن نجمع في صفوف كلية البنات في القاهرة بنات آباؤهن باشوات وبكوات ولا يوجد مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي وبالتالي ليس هناك من طريق أقرب إلى تقويض حصن الإسلام من هذه المدرسة[1].

وفي سياق هذه الحملة لا نفتأ نرى أو نسمع عن كتاب أو قصة أو رواية تعمل على تشويه صورة المرأة في الإسلام بأبشع الصور، ولعل آخر ذلك رواية تسمى (جوهرة المدينة) لأمريكية تدعى (شيري جونز) تتعرض فيها بكل سقوط الكلمة وبشاعتها لنبي المسلمين وزوجته أم

---

(١) لمحات في الثقافة الإسلامية عمر عودة الخطيب، ص١٨٣-١٨٢.

المؤمنين عائشة رضي الله عنها[1]. وما تكاد تسمع بهذه الرواية دار نشر في هذه الدولة أو تلك إلا وتتسابق إلى نشرها دون اعتبار لمشاعر المسلمين متخطية بذلك كل حواجز العلاقة والأخلاق والقيم الإنسانية التي تفترض في أي عمل مهما كان وصفه أو مسماه. أما الصورة الأخرى من صور الحملة على الإسلام فيسمونها «حقوق الإنسان» فهذه الحملة تصف الإسلام بالإرهاب، وأنه لا يحترم حق الإنسان، ولا حريته ثم يرتبون على هذه الحملة حقا في التدخل في بلاد المسلمين، وغايتهم من هذا التدخل إشاعة الفتن التي تؤدي إلى اختلاف المسلمين وتشويه عقيدتهم. وقد بدأ هذا واضحا في الغزو المادي كما حدث في العراق حين احتلوه بحجة اضطهاد الأقليات فيه.

وكما حدث ذلك أيضا في احتلال أفغانستان وإثارة الفتن في جنوب السودان وغربه، وفصله عن دولته كما فصلت -من قبل- تيمور الشرقية عن إندونيسيا، ناهيك بالغزو الفكري والدعوي الذي يتغلغل في حياة المسلمين، ويشككهم في عقيدتهم وتراثهم وقيمهم وفق وسائل منظمة

(١) رواية جوهرة المدينة (The Jewel of Medina) للكاتبة الأمريكية شيري جونز أقرب إلى الابتذال وتحتوي على المغالطات ووصفت بأنها جناية على الأدب والتاريخ ومليئة بالاستفزاز والاستهانة بمشاعر المسلمين.

مستغلا في ذلك الأوضاع السياسية والاقتصادية التي يتعرض لها بعض المسلمين في بلادهم.

إنهم يعرفون هذه الحقوق جيدا ولكنهم ينكرونها؛ لأن الغاية لم تكن توفير الحقوق، وإنما التدخل في شئون المسلمين. لقد حكم الإسلام بكرامة الإنسان وحقه في الحياة والحرية وسائر الحقوق والأصل في ذلك القرآن في قول الله -عزوجل-: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:٧٠]. وقوله -عز وجل-: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

والكرامة هنا تشريع عام مناطه كل ما يكون فيه كرامة الإنسان فهو حق له، والأصل فيه أيضا السنة النبوية في قول رسول الله ﷺ: (يا أيها الناس! إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ألا هل بلغت؟) قالوا: بلى يا رسول الله! قال: (فيبلغ الشاهد الغائب)[١].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٤٨٩)، سلسلة الأحاديث الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني، ج٦ ص٤٤٩، برقم (٢٧٠٠).

وكما حكم الإسلام بكرامة الإنسان حكم بحريته في عقيدته فلم يكره أحدًا على الإسلام ولهذا قال الله عزوجل لنبيه محمد ﷺ ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]. وقوله ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِين﴾ [يونس:٩٩]. وقوله ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِين﴾ [يوسف:١٠٣]. ولم يتدخل الإسلام في حرية العقيدة إلا إذا دخل الإنسان فيها بطوعه، ثم ارتد عنها بطوعه، واختياره فيكون بذلك مفسدًا.

وكما كفل الإسلام هذا الحق للإنسان، كفل له حق الحياة، فقد خلقه الله لحكمة عظيمة هي عبادة الله وإعمار الأرض حتى ينتهي أجله وحق الحياة للإنسان من أعظم الحقوق، والتعدي على هذا الحق يعد من أخطر الاعتداء والأصل في هذا قول الله -عزوجل-: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللُّه عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣]. وقوله -عزوجل: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢].

والأصل فيه أيضا من السنة ففيها قول رسول الله ﷺ: (من قتل

معاهدا لم يرح رائحة الجنة)[1]. وكما كفل الإسلام للإنسان هذه الحريات، كفل له حرية التملك والتصرف في كل ما تقتضيه حياته وفق الأسس الشرعية وقواعد الأخلاق. كما كفل له حق المشاركة في الحكم والاقتصاد، وكفل له حرية التفكير والتعبير وفق الأسس الشرعية وقواعد الأخلاق.

هذا فيض من غيض؛ فحقوق الإنسان في الإسلام أعظم من أن يتحدث فيها متحدث، أو يتقول فيها متقول، أو يتأول فيها متأول فما أتى للبشرية من حقوق في دين، وما وضعه الواضعون لها من عقيدة أو ملة مثل ما جاء به الإسلام للإنسان من الحقوق فأين هذه الحقوق مما فعله الصليبيون الأُوَل حين قدموا إلى الشرق وفعلوا ما فعلوا من قتل وتدمير، وما فعله خلفهم من قتل للأبرياء كما حدث في العراق وأفغانستان مما هو معروف للعالم أجمع؟ أين ما حدث من انتهاك لحقوق الإنسان في (سجن أبو غريب) في العراق و(قاعدة باكرام) في أفغانستان و(معتقل جوانتنامو) في كوبا وما حدث من قتل للأطفال في (غزة) في فلسطين؟ أين هذا كله من سلوك المسلمين؟ ففي إحدى المعارك التي هزم فيها

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم، فتح الباري ج٦ ص٣١١، برقم (٣١٦٦).

الصليبيون وفر الناس من القتال نسيت إحدى النساء طفلها ثم جاءت تستصرخ صلاح الدين ليرده عليها فلم يهدأ له -رضي الله عنه- بال إلا بعد أن رده عليها فسكن روعها وصاحت تحمد له ما فعل(١). أين هذا مما فعله صلاح الدين مع ملك القدس الصليبي بعد أن وقع في الأسر فأجلسه إلى جانبه وأمر له بماء مثلوج ليهدأ من روعه حين كان يخاف من قتله بسبب جرائمه فما كان من صلاح الدين إلا أن قال له «السلطان لا يقتل السلطان»(٢).

أين ما قرأناه وشاهدناه من قتل للأبرياء وانتهاك للأعراض مما حدث من صلاح الدين؛ فقد جاءته النبيلات والأميرات بعد تحرير بيت المقدس وقلن له: أيها السلطان لقد مننت علينا بالحياة ولكن كيف نعيش وأزواجنا وأولادنا في أسرك؟ وإذا كنا ندع هذه البلاد إلى الأبد فمن سيكون معنا من الرجال لحمايتنا والسعي لمعاشنا؟ أيها السلطان هب لنا أزواجنا وأولادنا فإنك إن لم تفعل أسلمتنا للعار والجوع، وما إن سمع صلاح الدين هذه الكلمات حتى تأثر بها فوهب لهن رجالهن حفظا لأعراضهن وكرامتهن رغم ما فعلوه من قتل المسلمين.

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لأحمد الشلبي، ج ٥ ص٧٥٨.
(٢) نفس المرجع ج ٥ ص٧٥٨.

الصورة الثانية: تجنيد الوكلاء لبث الدعاوى والفتن بين المسلمين وتفريق كلمتهم:

وقد اتخذت هذه الصورة وسائل عدة منها:

التشكيك في القرآن وقد بدا هذا واضحا في قضية (سلمان رشدي) البريطاني الجنسية وما حصل له من التأييد والحماية حين تعرض لرسول الله ﷺ وما أنزل عليه من ربه. وما حصل من البنغالية (تسنيمه نسرين) من هجوم على الإسلام، كما بدا هذا التجنيد واضحا في قلة من الوكلاء المأجورين من ضعاف النفوس من المسلمين وغيرهم المنبثين في وسائل الإعلام وجعلهم واجهة للغزو الفكري والدعوي، ووصفهم بالتنور والحداثة ونحو ذلك من الصفات التي ترفعهم في مجتمعاتهم لكي يعيدوا صياغة فكرها لخدمة غايات آجريهم.

الصورة الثالثة: العمل على تغيير المناهج الدينية لأولاد المسلمين: وذلك من خلال تشويهها ووصفها بأنها تدرس الإرهاب والكراهية، والانفعال الفكري والسياسي ضد مصادرها، والغاية من هذا كله فصل أولاد المسلمين تدريجيا عن عقيدتهم، والإيحاء لهم أنها لا تصلح للتطور التقني والمادي، وأن عليهم إذا أرادوا هذا التطور انتهاج الفكر الغربي في فلسفته السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وقد تمثل هذا الانفعال في أقوال عدد من المفكرين ومن يوصفون بالمبشرين.

منها: قول (وليم جيفورد بالجريف): متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة الغربية بعيدا عن محمد وكتابه(١).

ومنها: مخاطبة القس زويمر رئيس جمعيات التبشير في مؤتمر القدس للمبشرين الذي انعقد عام ١٩٣٥م بقوله: إن مهمة التبشير التي ندبتكم الدول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست في إدخال المسلمين في المسيحية فإن في هذا – كما يقول - هداية لهم وتكريما(٢). إن مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقا لا صلة له بالله وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، ولذلك تكونون بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري للمالك الإسلامية. ثم يقول: إن للتبشير بالنسبة للحضارة الغربية **مزيتين**: **مزية هدم وبناء**:

أما الهدم فنعني به انتزاع المسلم من دينه ولو بدفعه إلى الإلحاد.

---

(١) نقلا عن كتاب دمروا الإسلام وأبيدوا أهله لمحمد جلال عالم، ص٣٩.

(٢) دمروا الإسلام وأبيدوا أهله ص٣٨. المرجع السابق.

وأما البناء فنعني به تنصير المسلم - إن أمكن - ليقف مع الحضارة الغربية ضد قومه. وما دام المسلمون ينفرون من المدارس المسيحية، فلابد أن تنشأ لهم المدارس العلمانية، وتسهيل التحاقهم بها. هذه المدارس التي تساعدها على القضاء على الروح الإسلامية عند الطلاب(١).

وحتى يكون الهدف من التبشير واضحا قال القس زويمر: ((لقد قبضنا أيها الإخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية المستقلة أو التي تخضع للنفوذ المسيحي، أو التي يحكمها المسيحيون حكمًا مباشرًا، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير المسيحي والكنائس والجمعيات، وفي المدارس الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوربية والأمريكية وفي مراكز كثيرة ولدى شخصيات لا تجوز الإشارة إليها، الأمر الذي يرجع الفضل فيه إليكم أولا وإلى ضروب كثيرة من التعاون بارعة باهرة النتائج، وهي من أخطر ما عرف البشر في حياته الإنسانية كلها. إنكم أعددتم بوسائلكم جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد. إنكم أعددتم نشئًا لا يعرف الصلة

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي لشاتيلة ترجمة محب الدين الخطيب ص١١.

بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية، وبالتالي: جاء النشء الإسلامي طبقًا لما أراد له الاستعمار، لا يهتم بالعظائم، ويحب الراحة والكسل، فإذا تعلم فللشهوات، وإذا جمع فللشهوات، وإن تبوأ اسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء))[1].

قلت: هذه هي حقائق سيرة رسول الله محمد ﷺ في دعوته وهذا هو سلوك المتعصبين ضد رسالته ودعوته أمثال الإمبراطور البيزنطي (مانويل الثاني) وأتباعه، ومن هذه الحقائق يتبين أن من يفعل الأشياء الشريرة هم أولئك الذين يعميهم الهوى، ويدفعهم التعصب والكراهية عن معرفة الحقيقة التي وردت في التوراة والإنجيل عن البشارة برسالة رسول الله محمد ﷺ.

المحور الثاني: التعرض لدين الإسلام والإيهام بأنه يقوم على العنف:

وفي هذا المحور من محاضرة البابا بنديكت السادس عشر ما نسبه إلى الإمبراطور البيزنطي من وصف دين الإسلام بالعنف؛ لأنه -كما يقول- يقوم على الجهاد. والمشكلة في فهم العقلية الغربية لمعنى الجهاد في الإسلام، إما بسبب الجهل أو التعصب:

---

(١) جذور البلاء لعبد الله التل ص٢٧٦.

فالجهل مفترض في العامة من الغرب بحكم بعدهم أو إبعادهم عن معرفة هذا عدم حقائق الإسلام، ناهيك بما توارثوه من تاريخ مشوه عن هذه الحقائق منذ الحروب الصليبية.

أما التعصب عند الخاصة منهم؛ فيرجع إلى أحقاد قديمة أوجدتها تراكمات الصراع والمصالح الاستعمارية مما جعل - للأسف – هذه العقلية أسيرة لها. وبحكم ما يربط أمة المسلمين والغرب من روابط الجوار والمصالح المشتركة والعلائق الإنسانية -كما ذكرنا في المقدمة- نود بل ونأمل أن يدركوا حقائق الإسلام؛ رعاية لهذه الروابط وحفظا لها، ومن هذه الحقائق أن الإسلام يقوم على السلم، والتسامح، ومحبة الإنسان ورعايته وحفظ حقوقه وكرامته، ولكنه يرفض الظلم والطغيان.

وفي إطار هذه القواعد يقوم الجهاد على **ثلاثة أسباب** هي: **الدعوة إلى الله بالحكمة، ورد الظلم الحال، ودفع الخطر المنتظر.**

السبب الأول: الدعوة إلى الله: وهذه وسيلة سلمية تخاطب العقل ابتغاء تبصير الإنسان بحقيقة وجوده وعلاقته مع خالقه وذلك بالإيمان بأنه لا خالق إلا هو، ولا معبود بحق إلا هو. كما تبصره هذه الوسيلة بما يجب عليه نحو بني جنسه وكيفية تعامله معهم. ولهذه الدعوة خمسة وجوه: البلاغ، والإنذار، ومخاطبة العقل، والبشارة، والشهادة.

الوجه الأول- البلاغ: والمراد به إيصال هذه الحقائق إليه وهذا هو ما قام به الرسل ومنهم نبي الله ورسوله محمد ﷺ؛ فقد أمره الله بالدعوة في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة:٦٧]. كما أمر بهذا البلاغ موسى وعيسى وكافة الرسل عليهم السلام كما قال -عزوجل-: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِين﴾ [النحل:٣٥] وقوله -عز ذكره-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُواْ اللَّه وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، ولم يقم رسول الله ﷺ بالبلاغ للناس إلا بعدما أمر به، فبلغ من حوله من قومه، وأهل مكانه في مكة وما حولها. ثم بلغ ما أمره الله به إلى العالمين في زمانه من الأباطرة والملوك -كما ذُكر ذلك من قبل- وكانت عبارات البلاغ تفيض أمنا وسلاما للمبلغين واحتراما لرسالات من سبقه من الأنبياء والرسل، ومن ذلك رسالته لملك الحبشة التي نكررها لمزيد الفائدة وإن سبق ذكرها: «بسم الله الرحمن الرحيم إني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له،

والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عزوجل».

الوجه الثاني - الإنذار: وهذا أيضا وسيلة سلمية، فالمراد منه قبول المبلغ لمحل الإنذار، وهو الإيمان بالله وتوجيه العبادة له وحده وهذا هو المراد أصلا من خلق الإنسان، ولا يكون هذا البلاغ ذا معنى إلا إذا عرف المبلغ أن لقبوله أو رفضه للبلاغ أثرا يترتب عليه ثواب أو عقاب. وقد أمر الله نبيه ورسوله محمدا ﷺ أن يكون نذيرا للناس، بأن لهم حسن العاقبة في الدنيا والآخرة إذا آمنوا بالله، وأن لهم سوء العاقبة إذا لم يؤمنوا، وقد بدأ رسول الله ﷺ بالنذارة لقومه طاعة لله في قوله -عزوجل-: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]. إلى قوله -عزوجل-: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:٢١٦]. أي أتبرأ من كل من لا يؤمن بالله كائنا من كان. وكما أنذر قومه الأدنين منه أنذر أهل مكة طاعة لله في قوله -عزوجل-: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام:٩٢]. وكما أنذر هؤلاء أنذر كل البشر طاعة لله في قوله -جل ثناؤه-: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام:٥١]، وقوله -عزوجل-: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر:١]، وقوله -عزوجل-: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:٢].

الوجه الثالث- مخاطبة العقل: الإسلام يخاطب الإنسان بعقله ولا يجبر أحدا على الدخول فيه. والدعوة إليه تبنى على جدال المخاطب بعقله وهذا الجدال يجب أن يكون بالحكمة وحسن القول وبهذا أمر الله نبيه ورسوله محمدا ﷺ بقوله -عزوجل-: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]. والمفترض في المجادل أن يجادل بمثل ما يجادل به من الحسنى؛ فإن لجأ إلى الظلم فيعامل بما يرد ظلمه وهذا هو ما يقتضيه العقل وفي هذا قال تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦]. والقرآن الذي أمر الله رسوله محمدا ﷺ أن يبلغه إلى الناس يخاطب الناس بعقولهم، ويدعوهم إلى التفكر في حقيقة ما يدعون إليه، وذلك في آيات عديدة منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُون﴾ [الرعد:٤]. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُون﴾ [النحل:١٣]. ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَاب﴾ [آل عمران:٧].

واتباعا لهذا كان رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى وعي رسالته وإدراكها بعقولهم، وذلك بالتحرر من عبادة الأوثان والأصنام والتفكير في أنها لا تجلب لهم نفعا، ولا تدفع عنهم ضرا، وإنما هي من أرجاس الشياطين وضلالهم واستعبادهم للعقل، وقد ابتدأ -عليه الصلاة والسلام-

بدعوته أقرباءه، فقام على جبل الصفا في مكة وخاطبهم بعقولهم قائلا: (أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟) قالوا: ما جربنا عليك كذبا. قال: (فإني نذيرلكم بين يدي عذاب شديد)[1].

وعندما كان -عليه الصلاة والسلام- يودع أمته في حجة الوداع، ويؤكد على حرمة الأنفس والأموال والأعراض والاهتمام بالنساء خاطب الناس بعقولهم بقوله لهم: (ألا هل بلغت؟) قالوا: نعم: قال: (اللهم اشهد)[2].

الوجه الرابع- البشارة: وهي الإعلان للبشرية أن لها حسن العقبي في الدارين إذا قبلت البلاغ والنذارة، وقد وصف الله القرآن بأنه بشارة للمؤمنين في قوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٩]. وقوله -عز وجل-: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف:٢]. وقوله -عز وجل-: ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف:٣]. وقوله -عز وجل-: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ [مريم:٩٧]. ثم وصف مهمة نبيه ورسوله محمدا ﷺ بقوله -عز وجل-: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِىُّ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب حدثنا يوسف بن موسى، فتح الباري ج٨ ص٦٠٩، برقم ٤٩٧١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، فتح الباري ج٣ ص٦٧٠، برقم (١٧٤١).

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥]. إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧].

الوجه الخامس - الشهادة على البلاغ والإنذار: وهي أيضا وسيلة سلمية تبين للمبلغين عبء المسئولية عليهم بعد بلاغهم وإنذارهم وهي أيضا براءة للرسل المبلغين بأنهم قاموا بما أمرهم الله به من إبلاغ رسالته إلى أقوامهم وأممهم، وقد شهد نبي الله عيسى -عليه السلام- على قومه بأنه دعاهم إلى عبادة الله وحده، وأنه تبرأ من تأليههم له ولأمه بقوله -عز وجل-: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد﴾ [المائدة:١١٧].

وقد ألقى الله على نبي الله ورسوله محمد ﷺ وأمته عبء الشهادة على الناس يوم القيامة بقوله -عز وجل-: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

السبب الثاني من أسباب الجهاد دفع الظلم الحال: وهذا الدفع معلوم لدى الإنسان منذ الأزل سواء كان هذا التعامل نتيجة قواعد دينية أو وضعية؛ ذلك أن وجود الإنسان على الأرض يقتضي عدم تعرضه للظلم، فإما أن

يقتص بنفسه من ظالمه أو تكون له سلطة يرجع إليها في هذا القصاص أو يندثر. والمسلمون في علاقتهم مع بعضهم أو مع غيرهم لا يخرجون عن هذه القواعد؛ فرسولهم محمد ﷺ بدأ دعوته بالكلم الطيب المبني على المجادلة بالعقل امتثالا لأمر الله له بقوله عزوجل -فيما سلف ذكره- ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

وقد أمضى عشر سنوات وهو على تلك الحال يدعو، ويعظ، ويجادل، ويلاطف المدعوين غير أن المتنفذين من المشركين في مكة قابلوا دعوته بالرفض والظلم، فعذبوا أتباعه بأشد أنواع العذاب، وذلك بوضعهم في الشمس الحارقة، ومنع الماء عنهم، ووضع الصخور الحارقة فوق أجسامهم وقتلهم بأبشع أنواع القتل. ورغم قسوة الظلم من قومه لم يقاتل أحدا منهم؛ بل كان يدعو لهم بالخلاص من عبودية الأحجار ويدعوهم إلى عبادة الله الذي خلقهم، ورغم تكذيبهم له كان يقول: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)[1]. ولما ظل قومه على تلك الحال من الإصرار على شركهم، وظلمهم له، واتباعه، ومحاولتهم قتله، مما اضطره إلى الاختباء في جبل بعيد يعبد الله فيه بعد أن ضيقوا عليه في مكة ومنعوه من العبادة فيها، أمره الله بالهجرة من بلده مكة إلى المدينة

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٧) واللفظ له، ومسلم (١٧٩٢)، فتح الباري ج١٢ ص ٢٩٥.

وهناك نزل عليه قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج:٣٩]. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج:٤٠]. فاقتضى هذا أن يقاتل من قاتله غير مبتدء بقتال، أو متعد على أحد ولكن المشركين في مكة لم يريدوا لرسالته أن تظهر وتسود، فكانوا يعملون على النيل من هذه الرسالة متمالئين في ذلك أسلاف اليهود الذين مع كانوا أصحاب نفوذ وقوة في المدينة رغم كونهم قلة قليلة.

وقد تمثل الجهاد لدفع الظلم في **ثلاث معارك رئيسة** داخل جزيرةالعرب.

المعركة الأولى: ما عرف بـ(معركة بدر) وخلاصتها: أن مشركي مكة كانوا قد استولوا على أموال المسلمين المستضعفين في مكة حين هاجروا إلى الحبشة والمدينة، وكانوا –أي المشركين- يتاجرون مع بلاد الشام مختلف أنواع التجارة، وفي هذه التجارة قوة لهم، فهم لا يخفون عداءهم للرسالة، ويتربصون بصاحبها وأتباعه، في حال كهذه حاول المسلمون أن يتعرضوا لتجارتهم، ليستردوا ما سبق أن أُغتصب من أموالهم في مكة، فلما علم المشركون بذلك، جمعوا جموعهم التي بلغت حوالي ألف وستمائة مقاتل.

وقد انتصر المسلمون في تلك المعركة رغم قلة عددهم الذي لم يتجاوز ثلاثمائة مجاهد إلا قليل، وذلك بفضل إيمانهم وإصرارهم على دفع الظلم عنهم وعن أموالهم.

المعركة الثانية: (معركة أحد): وهذه نتيجة للمعركة التي قبلها؛ ذلك أن المشركين لما انهزموا فيها أرادوا الثأر من تلك الهزيمة، وفي ذلك خاطبهم رئيسهم أبو سفيان بقوله: «يا معشر قريش لا تبكوا على قتلاكم ولا تنح عليهم نائحة ولا يبكهم شاعر أظهروا الجلد والعزاء فإنكم إذا نحتم عليهم وبكيتموهم بالشعر أذهب ذلك غيظكم فثناكم عن عداء محمد وأصحابه فإذا بلغ محمدًا وأصحابه نواحكم شمتوا بكم فتكون أعظم المصيبتين شماتتهم، وتصبروا لعلكم تدركون ثأركم عما قريب وإن الدهن والنساء على حرام حتى أغزو محمدا»[1]. وقد أدى هذا النداء إلى غزو المشركين للمدينة، وقد وجدوا عونا لهم من المنافقين واليهود الذين فقدوا قوتهم ومراكزهم بعد انتشار الرسالة، وقد أوحى الله إلى نبيه ورسوله محمد ﷺ خبرهم وما كانوا يبدونه له ويخفونه في نفوسهم.

---

(١) المغازي للواقدي ج ١ ص١٢١.

ومع أن تلك المعركة لم تكن في ظاهرها في صالح المسلمين إلا أنها كانت في نتيجتها لصالحهم؛ حيث إن المشركين لم يكتفوا بما اعتبروه خطأ نصرا لهم بل أرادوا العودة إلى المدينة لاستئصال رسول الله وأتباعه. ومع أنهم تواعدوا على لقائه في موقعة تسمى (حمراء الأسد) إلا أنهم أدركوا أنه ﷺ قد صمم على دفع ظلمهم بقوة إيمانه وأتباعه فنكثوا ما عاهدوا أنفسهم عليه ورجعوا أدبارهم إلى مكة.

أما المعركة الثالثة: فتعرف بـ(معركة الأحزاب أو الخندق) وسبب هذه المعركة يرجع إلى عزم أسلاف اليهود على الثأر من رسول الله ﷺ بعد أن أبعد قبيلتين صغيرتين منهم؛ فقد عاهدهم على الأمن والسلم وألا يعينوا عليه عدوا إلا أنهم لم يوفوا بذلك بل تآمروا عليه مع المشركين والمنافقين، ونقضوا الميثاق الذي واثقهم به، فاضطر إلى إبعادهم إلى مكان قريب من المدينة يسمى (خيبر)، وفي غمرة تآمرهم بعثوا عددا من رؤسائهم إلى مكة ودعوا رؤساء المشركين إلى حرب رسول الله ﷺ، ولم يكن المشركون يومئذ متطلعين لقتال محمد ﷺ لمعرفتهم بما أصبحت عليه الرسالة من القوة والانتشار ومع ذلك وفي غمرة جهلهم وعماهم عن الحق سألوا اليهود بوصفهم أهل كتاب عن مدى حقهم في قتاله بقولهم: «يا معشر يهود أنتم أهل الكتاب الأول والعلم أخبرونا بما أصبحنا

نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دين محمد؟ فنحن عمار البيت وننحر البدن ونسقي الحجيج ونعبد الأصنام». فأجابهم اليهود: «أنتم أولى بالحق منه إنكم لتعظمون هذا البيت، وتقومون على السقاية، وتنحرون البدن وتعبدون ما كان عليه آباؤكم فأنتم أولى بالحق منه»(١).

فأنزل الله في ذلك قوله -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلا﴾ [النساء:٥١]، و قوله -تعالى-: ﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللُّه وَمَن يَلْعَنِ اللُّه فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء:٥٢].

وقد وجد المشركون في هذا الجواب دافعا لهم على معاودة غزو المدينة خاصة، وأن اليهود أهل قوة ومال إلى جانب قوة المنافقين والمنتفعين من الأعراب الذين أغرتهم المنافع التي استعد اليهود ببذلها لهم فاستعدوا جميعا لحرب الاستئصال وقد أطلق على هذه الحرب (حرب الأحزاب).

وقد استعد المسلمون لتلك المعركة بثلاثة آلاف من المقاتلين بعد أن حفروا خندقا للمساعدة في صد الغزاة المتحالفين، وقد فوجئ المسلمون بانضمام قبيلة بني قريظة اليهودية إلى الأحزاب رغم ما بينها وبين رسول الله ﷺ من معاهدة الأمن والسلم؛ فقد كانت هذه القبيلة مترددة في

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٣٠٠-٢٩٨.

هذا الانضمام إلا أن أحد زعمائها ما برح يعدها ويمنيها أن هذه المعركة ستكون المعركة الفاصلة التي يُستأصل فيها محمد وأتباعه.

ورغم وطأة هذا العدوان إلا أن شعور المسلمين بكونهم على حق يدفعون به الظلم، جعلهم أكثر عزما وتصميما وقوة على مقاومة الغزاة ومنازلتهم. وقد ذكر الله ذلك عنهم في قوله -عزوجل-: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢]. وقوله -عزوجل-: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣].

وقد انتهت تلك المعركة بنصر المسلمين، وهزيمة المشركين، بعد أن سلط الله عليهم ريحا بددت قواهم، وشتت شملهم، وأوهنت عزائمهم وقد بين الله ذلك بقوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب:٢٥].

السبب الثالث: دفع الخطر المباشر: لما بدأت الرسالة النبوية تنتشر في الجزيرة العربية كان من الطبيعي أن تتأثر بها البلاد المجاورة خاصة بلاد الشام؛ وكعادة رسول الله ﷺ في دعوة الناس إلى الإسلام

تنفيذًا لأمر الله له بذلك أرسل إلى ملك (بصرى)[١] رسالة سلمية يدعوه فيها إلى الإسلام فلما وصل الرسول[٢] إلى مكان يسمى (مؤتة)[٣] اعترض له أحد النصارى الموالين للروم فسأله عن وجهته، فأخبره أنه مرسل لملك بصرى فسأله عمن أرسله بالرسالة فأجابه بأنها من رسول الله محمد فما كان منه إلا أن أوثق يديه ثم قتله. ولم تكن هذه الحادثة فحسب بل إن عامل الروم في (معان)[٤] وما حولها من بلاد الشام[٥] أرسل رسالة إلى رسول الله ﷺ يخبره فيها بإسلامه فلما علم الروم بخبره سجنوه ثم قتلوه، ولم يكتف الروم وحلفاؤهم من النصارى العرب بذلك، بل آذوا وقتلوا من يسلم من العرب في بلاد الشام.

---

(١) بصرى مدينة تاريخية تتبع محافظة درعا في الجمهورية العربية السورية حيث تبعد ٤٠ كم عن مركز مدينة درعا وحوالي ١٤٠كم عن دمشق، وكانت في الماضي نقطة توقف على طريق قوافل الحجيج لمكة المكرمة.

(٢) هو الحارث بن عمير الأزدي، بعثه رسول الله ﷺ بكتابه إلى ملك بصرى فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، فأوثقه رباطا، ثم قدم فضربت عنقه صبرا.. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير الجزري ج١ ص٣٨٨.

(٣) تقع جنوب محافظة الكرك الأردنية وتبعد ١٤٠ كم جنوب العاصمة الأردنية عمان.

(٤) مدينة أردنية تقع في الجهة الجنوبية من البلاد على الأطراف الغربية للهضبة الصحراوية الممتدة من شبه الجزيرة العربية حتى بادية الشام.

(٥) أسد الغابة ج ١ ص٣٩٨.

وقد بدا من هذا العدوان أن الروم وحلفاءهم من النصارى العرب أصبحوا معادين للإسلام ولنبيه وأنهم يشكلون خطرا مباشرا على المسلمين في المدينة التي لا تبعد كثيرا عن الشام، وكان هذا السلوك يعد اعتداء على المسلمين لا يتعلق بدينهم فحسب بل يتعلق بحياتهم وكيانهم وبلادهم، وفي حال كهذه لابد من مواجهة هذا الخطر بإرسال جيش يمنع الاعتداء على المسلمين. ولم يكن رسول الله ﷺ يريد إرسال هذا الجيش بل كانت أمنيته أن تبلغ الدعوة للناس هناك دون قتال؛ لأن دعوته – كما ذكرنا – قائمة على الموعظة والمجادلة الحسنة إلا أن خوف الروم وحلفاءهم من بلوغ الرسالة مبلغها، جعلهم يعدون العدة للاعتداء على المسلمين، فلما علموا بخروج الجيش جمعوا مائتي ألف مقاتل مقابل ثلاثة آلاف من المسلمين، وقبل أن يترك الجيش المدينة خطب فيه رسول الله ﷺ خطبة وداع منها قوله لقائد الجيش: (لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأة ولا شيخًا طاعنًا في السن، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث فأيهن أجابوك إليها فاقتبل واكفف عنهم، ادعهم إلى الدخول في الإسلام، فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين، وعليهم ما عليهم، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم، وإن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم

حكم الله.. فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم..)[1]. ورغم الفارق بين جيش المسلمين وجيش الرومان إلا أن المسلمين استطاعوا أن ينجوا من تلك المعركة بأقل الخسائر، ومع أنهم خسروا ثلاثة من قادتهم[2] في تلك المعركة إلا أنهم لم يخسروا إيمانهم وتصميمهم على دفع الخطر الذي كان الرومان وحلفاؤهم يبيتونه لهم. وخلال سنة مضت من تلك المعركة تغير الكثير من واقع المسلمين، فقد انهارت مواقع المشركين في مكة وما حولها، وأصبحت مكة قبلة المسلمين، وتتابع الناس إلى الدخول في دين الله وقد ترددت أصداء هذا الفتح في البلاد المجاورة للجزيرة العربية، وأصبحت بعض القبائل العربية في الشام تتطلع إلى الدخول في دين الله، والخلاص من الرومان الذين كانوا يستعبدونهم. فلما رأى الرومان ما حدث في الممالك التي يستعمرونها من ضعف لسطانهم بدؤا في إعداد القوة لغزو المدينة، فكونوا جيشا من جنودهم، ومن بعض القبائل العربية التي ما زالت على ولائها لهم، وقد تحمس لهذه الغزوة الإمبراطور الروماني (هرقل) فدفع للمقاتلين أموالا كثيرة، وأقام في مدينة (حمص) ينتظر نتائج المعركة. فلما وصلت أخبار هذه الحملة إلى رسول الله ﷺ ورأى أنها تعرض

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج ٨ ص ٤٧٧٥.
(٢) هم: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة رضوان الله عليهم أجمعين.

المدينة للخطر المباشر، خطب في المسلمين، ودعاهم إلى النفير إلى (تبوك)، القريبة من الشام لصد الرومان وحلفائهم. ورغم شدة الحر في تلك الفترة وجدب الأرض ومعاناة الناس من العسر في تلك الأيام، ووجود المرجفين والمثبطين من اليهود والمنافقين إلا أن رسول الله ﷺ وأصحابه، عقدوا العزم على التصدي للخطر الذي يهدد المدينة، فأعد ثلاثين ألفا من المجاهدين -كان ﷺ على رأسهم- ولما وصل -عليه الصلاة والسلام- إلى تبوك لم يجد فيها أحدا؛ لأن الرومان لما علموا بقدومه إلى تبوك غيروا خطتهم العسكرية فأبقوا جيشهم في مدينة (البلقاء) إحدى مدن الشام. وفي تلك الحال كان رسول الله ﷺ يراسل ما بقي من أمراء مدن الجزيرة العربية يدعوهم إلى الإسلام دون قتال، فمنهم من أسلم طائعا، ومنهم من آثر البقاء على دينه غير معاد للمسلمين، وبذلك أصبحت مناطق الجزيرة العربية ضمن الدولة الإسلامية، كما أسلمت كثير من القبائل العربية التي كانت تقطن بلاد الشام، فكانت واقعة تبوك مقدمة لزوال حكم الرومان المستعمرين لبلاد الشام وما حولها فيما بعد.

هذه بإيجاز شديد أسباب الجهاد الذي حرف بعض النصارى حقيقته ومفاهيمه ووصفوه -ظلما- بأنه أداة للاعتداء بينما هو أداة للأمن والسلام والحرية. فأرونا الأشياء الشريرة وغير الإنسانية التي نسبها الإمبراطور

(مانويل الثاني) زورا وبهتانا إلى رسول الله وادعى أنه أمر بنشر الدين بالسيف؟ نحن نعرف أن أتباع الإمبراطور (مانويل الثاني) كما يؤمنون بـ(العهد الجديد) يؤمنون بـ (العهد القديم) ونعرف أنهم قرأوا ما ورد في (الإصحاح العشرين) من (سفر التثنيه) ونصه: «حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة عنك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما بل تحرمها تحريما الحيثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين كما أمرك الرب إلهك»[1].

أين هذا السبي والقتل والإبادة والاستعباد من توجيه رسول لأصحابه بالرفق والدعوة الإنسانية، وهم يذهبون إلى الله، محمد دفع خطر كان يتربص بهم وبدينهم؟.. ألم يكن يأمرهم بالدعوة إلى الإسلام

---

(١) تثنيه ٢٠ - ٢١ ص٢١١.

بالحسني والرفق؟ ألم يكن يأمرهم بعدم التعرض لغير المعتدين؟ ألم يكن يترك للنصارى دينهم إذا لم يريدوا الدخول في الإسلام مقابل دفع مبلغ قليل من المال من أجل حمايتهم وأمنهم؟ أين هذا كله مما فعله الصليبيون الأول والجدد وزعيمهم (جورج بوش الابن) الذي قتل وشرد الملايين في العراق وبلاد الأفغان. ولعل أتباع الإمبراطور (مانويل الثاني) المؤمنين بمقولته عن رسول الله ﷺ يعرفون ما يقوله ويفعله الحاخامات الصهاينة؛ فالحاخام (يسرائيل روزين) يدعو إلى تطبيق (حكم عملاق) كما ورد في التوراة على الفلسطينيين؛ لأنهم أبناء العماليق الأشرار وهذا الحكم يقضي بقتلهم سواء كانوا كبارا أو صغارا أو نساء، بما في ذلك بهائمهم، وقد أيد هذه الدعوة عدد من الحاخامات الصهاينة منهم (دوف ليشور) والحاخام (شلومو الياهو) والحاخام (اوري لبينانيسكي) كما أيد هذه الدعوة الحاخام (يوسف فلاي) في مقال نشرته مجلة (لهبة) الصهيونية تحت اسم طرق الحرب، ودعا إلى إبادة كل ذكر فلسطيني يزيد عمره عن ثلاثة عشر عاما. وقال: يجب علينا ضمان عدم بقاء الفسطينيين تحت الاحتلال فإذا هربوا فهذا جيد وإذا لم يهربوا يجب قتلهم كليا أو على الأقل العمل على طردهم إلى دول أخرى[1].

(١) نشرت تصريحاته هذه بتاريخ ١٩ / ٨ / ١٤٢٧هـ، ونشرتها العديد من الوسائل الإعلامية.

واستجابة لهذه الدعوات قام -أخيرا- جيش إسرائيل بغزو مدينة (غزة) في فلسطين، وقتل من أهلها ألفا وأربعمائة، ثمانون منهم من الأطفال والنساء والمسنين كما جرح منهم أكثر من خمسة آلاف منهم العديد من المعوقين والمشوهين، ولم يقتصر الغزو على هذا فحسب بل تم تدمير ممتلكاتهم وأشجارهم ومركباتهم ودوابهم عملا بتلك الدعوات.

وإذا كان الإمبراطور (مانويل الثاني) قال قولته الباطلة عن رسول الله ﷺ إما لحقده أو كراهيته للإسلام ونبيه، أو لأنه كان يعاني من انحسار النصرانية في وقته فما بال بعض هؤلاء المعاصرين من النصارى، يصدقون هذه المقولة الخاطئة؟ فهم إن كانوا لا يصدقون التاريخ الذي يشهد أن الإسلام لم ينتشر بالقوة فليصدقوا المفكرين المنصفين منهم، ومن هؤلاء البروفيسور (غوستاف لوبون) الذي قال: «إن القوة لم تكن عاملا في انتشار القرآن.. فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام، وأخذوا العربية لغة، فذاك لما رأوه من عدل العرب الغالبين، مما لم يروا مثلهم من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل، ولم ينتشر القرآن إذا بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت مؤخرا

كالترك والمغول»[١]. وقال: «..وقد أدرك الخلفاء السابقون الذين كان عندهم من العبقرية السياسية ما ندر وجوده في دعاة الديانات الجديدة أن النظم والأديان ليست مما يفرض قهرا فعاملوا أهل كل قطر استولوا عليه بلطف عظيم، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة في الغالب إذا قيست بما كانوا يدفعون سابقا في مقابل حفظ الأمن بينهم فالحق أن الأمم لم تعرف متسامحين مثل العرب ولا دينا سمحا مثل دينهم»[٢].

أما الفيلسوف الإنجليزي (توماس كارليل) فقال في كتابه (الأبطال والبطولة): «إن من السخف الذي لا يفهم أن يتهم محمدا أنه اعتمد على السيف في نشر دعوته وكيف يعقل أن يشهر رجل وحيد سيفه ليقتل به الناس حتى يستجيبوا لما يدعو إليه، فإذا آمن به من يستطيعون محاربة خصومهم فقد آمنوا به طائعين مختارين مصدقين محمدا، وقد تعرضوا للتعذيب والإيذاء والحرب من أعدائه قبل أن يقدروا على الحرب»[٣].

---

(١) حضارة العرب ١٢٧ – ١٢٨.
(٢) حضارة العرب ١٢٩.
(٣) عظمة الإسلام للشيخ عطية محمد الأبرشي ٢ / ١٦ / ١٧.

وإذا كان هؤلاء المكذبين والمنكرين لرسالة رسول الله محمد ﷺ ووصفها بأنها تقوم على العنف لم يصدقوا قومهم فليصدقوا ما يشاهدونه حاليا من انتشار الإسلام في أوربا وغيرها، وهل لهم أن يقولوا إن هذا الانتشار يتم بالسيف أم لأنه دين الفطرة ودين السلام والمحبة والدعوة إلى التعايش الإنساني في ظل العدل والإخاء مما جعل الإنسان يرى فيه أمله ومبتغاه في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

المحور الثالث: القول بأن الديانة المسيحية تقوم على العقل والتعريض بأن الإسلام على خلاف ذلك:

وفي هذا المحور من محاضرة بابا الفاتيكان: القول بأن الديانة المسيحية تقوم على العقل: وفي هذا قال في المحاضرة الآنفة الذكر «أن تتصرف بخلاف العقل بحسب (مانويل الثاني) يعني أنك تتصرف بخلاف طبيعة الله». وقال «إن إرادة الله في الإسلام ليست مقيدة أو متعلقة بأي مبدأ آخر بما في ذلك مقاييس العقل».

ثم قال «إذا عدنا إلى الجملة الأولى في سفر التكوين بحسب يوحنا نجد في البدء كانت الكلمة اللوغوس وكان الكلمة الله فالله يعمل باللوغوس واللوغوس يعني العقل والكلمة» -هكذا قال-. وهذا المحور من المحاضرة لا يختلف في طبيعته عن المحورين الأوليين من حيث الإساءة

إلى دين الإسلام واتهامه بأنه لا يقوم على العقل ومقاييسه.. ومن يقول هذا القول من علية النصارى وعلمائهم يعرف حقيقة الإسلام ومبادئه، ولكنه ينكرها بعد أن أثقل الهوى عقله فأطاعه؛ وهذا هو الغالب لدى هؤلاء ولدى فئات من المستشرقين الذين لم تكن الدراسة تستهويهم ابتغاء العلم والتقارب مع المسلمين بقدر ما كان الجدل ومظان الشقاق تستهويهم. ومع كل هذا يهمنا بسط حقيقة العقل في هذا الدين لأولئك الذي لا يزالون يعارضون هذا الشقاق ويبحثون عن التقارب مع المسلمين في إطار العلاقة الإنسانية بعيدا عن الحروب الصليبية التي لا يزال لها أنصار يوجدون لها الذرائع والأسباب.

أما العقل في مفهوم الإسلام فننظر إليه من القرآن المصدر الأول للإسلام بعيدا عن الجدل النظري الذي وضعه بعض الإنسان واصطدم بنتيجته. لقد شرف الله العقل وعظمه واختص به الإنسان تكريما وتشريفا له فقد أوجب عليه أحكام التكاليف؛ لأنه يعيها ويقدر على القيام بها خلافا للمخلوقات الأخرى التي استثناها من هذه الأحكام بعد أن استثناها من العقل. ومن الطبيعي أن تكون للعقل هذه المنزلة العليا في سلم الخلق الإلهي المعجز؛ لأنه مصدر السعادة للإنسان في الدارين إذا استخدمه فيما وجد له. أما في الدنيا فيسيره في منافعه وذاتياته، وهذا النفع متعدد

الوجوه من حيث اكتساب العلوم والمعارف، ومختلف وسائل الحياة التي لابد له أن يفعلها. وما كانت حضارته في مساراته الزمنية المتتابعة إلا نتاج عقله الذي يستهدي به متفكرا ومتبصرا ومستدلا به في مساره. وأما في الحياة الأخرى فيسيره للعمل فيما فرض عليه من الأحكام التي تؤهله لهذه السعادة إذا أداها كما أمر بها.

وما بين أيدينا من الكتب السماوية التي نسخت، أو الكتب الوضعية التي تهتم في جانب منها بالعقائد لا يدل على أن للعقل هذه المنزلة العليا التي جعلها له الإسلام. ففي كتاب الله الكريم آيات عظام تبين مناطه ودوره في فهم الإنسان لوجوده، وحقيقة الكون الذي يعيش فيه وهذا لا يحصل إلا للذين يدركون بعقولهم هذه الآيات ثم يرتبون عليها أفعالهم وسلوكهم وفي هذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. وقال -عز ذكره-: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم:٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم:٢٦]. وقال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧]. وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِى مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم:٢٨].

وليس المراد بالعقل هنا العقل الغافل الذي يتلقى ثم يتوقف، وإنما المراد العقل الفاعل الذي يتعلم ثم يعمل، ووظائف العقل في القرآن الكريم كثيرة منها: العلم، والتفكر، والتذكر، والتدبر، والتبصر، والأمر والنهي، وعدم الهوى. وهذه الوظائف تكاد كلها تقترب من المفروضات عليه؛ فالعلم مما أوجب الله على الإنسان وهو أول ما كلف الله به نبيه ورسوله محمدا ﷺ في قوله -عزوجل-: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق:١]. فبدون هذا العلم يتوقف عقله عن العمل الذي أراده الله منه، سواء كان هذا العمل دينيا أم دنيويا. والأمر بالعلم أمر وجوب أو فرض كما قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]. وقد فضل الله العلم ورفعه في قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١]. وفي مجال المقارنة بين العالم وغير العالم

فضل الله الأول في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩].

والعلم والإيمان مترادفان، فالأول ينبغي أن يسبق الثاني، وإلا تحول الإيمان إلى مجرد تقليد وفي هذا قال الله -عزوجل-: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ: ٤٦]. وقد ذم الله عز ذكره المقلدين لآبائهم فأنكر على المشركين تقليدهم لآبائهم في عبادة غير الله كما قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُون﴾ [الزخرف:٢٢]. ثم بيّن أن ما قاله المشركون سبق أن قالته الأمم التي كذبت رسلها، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُون﴾ [الزخرف:٢٣].

والعلم من أسس الإسلام ومن يقول غير هذا إما أن يكون جاهلا به أو كارها له ومتعصبا ضده، وشواهد العلم في الإسلام ماثلة فيما قدمه المسلمون للحضارة الإنسانية من مختلف العلوم، يوم كان الغرب واقعا تحت سلطته الدينية التي كانت تأمره بالاعتقاد دون أن يعلم عما يعتقده.

ومن وظائف العقل في الإسلام التفكر؛ لأن الله حين أوجد الإنسان من العدم ثم زاغ هذا عن حقيقة وجوده – وهو هنا عبادة الموجد – فعبد

غيره أو أشرك معه في هذه العبادة أراد منه أن يتفكر في الوجود في كينونته المطلقة لكي يهتدي من ضلاله، وفي هذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَاب﴾ [آل عمران:١٩٠]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّه قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٩١]. وقال -عز ذكره- : ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون﴾ [النحل:١١]. وقال -تقدست أسماؤه وصفاته- : ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الروم:٨].

إن الله عزوجل لما جعل للعقل هذه المنزلة التي ارتفع بها عن المخلوقات الأخرى، كلفه أن يتفكر في المحسوسات التي تجعله يهتدي إلى الطريق الذي رسمه له. وأعظم هذه المحسوسات التفكر في السموات التي يراها فوقه ثابتة ثم يتفكر أن ثباتها لا يكون إلا من قادر قائم عليها يحرسها بقدرته المطلقة بقوله -عزوجل-: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [لقمان:١٠]. وقوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [الحج:٦٥].

والتفكر يقتضي استذكار ما يدركه العقل ولا يكون هذا الاستذكار صحيحا إلا إذا كان دائما؛ لأن العقل المتفكر لا يدرك المحسوسات تارة وينساها تارة أخرى، وإنما يتذكرها مالم يعرض له عارض لا خيار له فيه كحال النائم والمجنون والصغير؛ فقد رفع الله عنهم التكليف لعدم قدرتهم على الإدراك بسبب غياب عقولهم. أما العقلاء فيجب عليهم أن يتذكروا ما أدركته عقولهم وقد بين الله عزوجل الفارق في المقارنة بين العقل الذي زاغ عن التفكر والتذكر فلم يؤمن بالقرآن ومتشابهه، وبين الراسخ في العلم، الذي آمن بالقرآن فتفكر وتذكر أنه من عند الله فلم يحرفه ولم يؤله على غير حقيقته، كما أوله الذين جعلوا عيسى ابنا لله فقالوا إن الله يقول ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:١٧١]. فآمنوا بهذا ولم يؤمنوا بقول الله لهم ﴿فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء:١٧١].

وفي هذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِىَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّه وَالرَّاسِخُونَ

فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:٧].

كما بين الله الفارق في المقارنة بين من يعلم بعقله أن القرآن هو الحق الذي أنزل على رسوله محمد ﷺ، وبين الأعمى في عقله الذي لا يعرف هذا الحق فقال -عزوجل- في استفهام تقريري ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ [الرعد:١٩].

والعقل المتذكر يدرك أن الصراط الذي وضعه الله لسلوك البشر وهدايتهم ومنافعهم بين لا خلاف فيه لأن الله بين في هذا الصراط كل شيء وجعله مستقيما؛ فقد فصل فيه الآيات وفصل فيه الأحكام الآمرة والناهية فلا عذر إذا للذين لا يعقلون وفي هذا قال تعالى: ﴿وَهَـذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٢٦].

ومن وظائف العقل في الإسلام التدبر: أي تفهم المحسوسات الكونية وما فيها من الحقائق التي تهدي العقل إلى الإيمان، وتنأى به عن الضلال، ولهذا خاطب الله المكلفين أن يدركوا بعقولهم هذه الحقائق بقوله -عزوجل-: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٨٥]. وقوله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ

وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُون﴾ [يونس:١٠١]. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوج﴾ [ق:٦]. وقوله -عز ذكره-: ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَت﴾[الغاشية:١٧]. وقوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:٢٤].

ومن وظائف العقل في الإسلام التبصر: والمراد به النظر ببصيرة العقل إلى المحسوسات التي يعيشها الإنسان، كحال الليل الذي تسكن فيه النفس، وتأثير الماء في الأرض، وهزيمة المعادين لدين الله، وفي هذا قول الله تعالى: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُون﴾ [القصص:٧٢]. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُون﴾ [السجدة:٢٧]. وقوله تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُون﴾ [الذاريات:٢١]. وقوله -عز ذكره-: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الأَبْصَار﴾ [الحشر:٢].

ومن وظائف العقل وجوب العلم بما لا يعلمه أي أنه مأمور بعلم ما يلزمه من العلم، وعلم العقل هنا علمان:

الأول: علم فطري: يدركه تلقائيا ومن ذلك إدراكه للمحسوسات كخلق السموات والأرض، وتأثير الماء في الأرض، والنظر في الأفلاك الكونية.

الثاني: علم تكليفي: ومن ذلك العلم بالواجبات الدينية والدنيوية، **أما الدينية** فقد أمره الله بذلك في قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُون﴾ [النحل:٤٣]. **وأما الدنيوية** فقد أمر بفعل كل ما فيه منفعة له في إطار المشروعية كالفلاحة والصناعة والعمل لقول الله -عزوجل-: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك:١٥].

وقد بين الله الفارق بين من يعلم ومن لا يعلم، فمن يعلم خير ممن لا يعلم، وفي هذا قال تعالى في استفهام تقريري: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]. وقال -عز ذكره-: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١].

ومن وظائف العقل: النهي والردع: أي عليه أن ينهى صاحبه عن المحرمات، فيما يتعلق بحق الله وحق الآدميين، فيحرم عليه التعدي على أنفسهم وأموالهم، وفي هذا قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّه إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ

بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون﴾ [الأنعام:١٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُون﴾ [البقرة:١٨٨].

ومن وظائف العقل في الإسلام أن يكون وازعا لصاحبه عن خلل سلوكه؛ فالنفس في ماديتها ذات شهوات ولا يمكن وقف هذه الشهوات إلا بالعقل وتحكمه في ماديتها وجنوحها، **وفي القرآن الكريم شواهد على ذلك:**

منها: أن المعرضين للعذاب يوم القيامة بسبب ذنوبهم يلومون أنفسهم؛ لأنهم لم يجعلوا عقولهم تتحكم في سلوكهم، وقد أخبر الله عنهم بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠].

ومنها: أن من يأمر الناس بالخير يجب أن يبدأ بنفسه ومن يفعل غير ذلك يعد غير عاقل، وفي هذا قال تعالى في استفهام إنكاري: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُون﴾ [البقرة:٤٤].

ومن هذه الشواهد: أن من يهزأ بما فرض الله عليه من التكاليف يعد غير عاقل؛ إذ إن العقل يقتضي الاستجابة لهذه الأوامر، لأن الغرض

الأساسي من الخلق عبادة الخالق، وفي هذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة:٥٨].

ومن هذه الشواهد: أن على العقل أن يدرك أن الحياة الدنيا مجرد لهو ولعب وزينة مؤقتة أما الدار الآخرة فهي دار القرار الأبدي وفي هذا قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:٣٢].

ومع أن عمل العقل فيما له علم فيه، غير مقيد بقيد؛ إلا أن هذا العمل مقيد بمشيئة خالقه، فهو يتفكر في آيات الله الكونية، ويتفكر في المحسوسات الظاهرة؛ فعقل الطبيب مثلا يتفكر في كيفية معالجة مرضاه، وعقل المهندس يتفكر في كيفية عمله، وعقل الصنائعي يتفكر في كيفية صنعته، وهكذا في كل عمل أني كان مسماه محكوم بمشيئة الله.

ومشيئة الخالق في دين الإسلام مطلقة، وغير مقيدة بأي قيد، وفي هذا قال تعالى في محكم كتابه: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١١٢]. وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ [الكهف:٢٣]. ﴿إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا

رَشَدًا﴾[الكهف:٢٤]. وقال جل ثناؤه: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِين﴾ [التكوير:٢٩].

ومشيئة الله مقترنة بحكمته، وعدله، ورحمته، وتوبته، ومغفرته.

أما اقتران مشيئته بحكمته: فالأصل أن الله حكيم فيما يفعل، وليس لأحد أن يسأل عن هذه الحكمة وأسرارها، وفي هذا قال تعالى: ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُون﴾ [الأنبياء:٢٣]. فالحكمة من أسرار الخلق لا يعرفها إلا هو.

ولما أخبر عزوجل الملائكة أنه سيجعل في الأرض خليفة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]، استعصى الفهم عليهم فلم يعرفوا الحكمة من هذا الخلق ﴿قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُون﴾ [البقرة:٣٠].

ومشيئة الله مقترنة بعدله؛ فقد خلق الكون بالعدل، وأقام فيه العدل وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّه يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل:٩٠]. وأمر الخلق بالعدل بقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:١٣٥]. فاقتضى هذا أنه لا يأمر

خلقه إلا بما فيه مصلحة ظاهرة لهم؛ فالعدل يمنع الشقاق بينهم، ويدفع الظلم عنهم، فتعمر الأرض ويسود الأمن والسلام، وليس لعاقل إنكار هذه المصلحة. كما اقتضى أمر الله بالعدل أنه لا ينهى عباده عن نهي إلا وهو يعلم أن فيه ضررًا لهم ففي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام:١٥١]. مصلحة ظاهرة فليس لعاقل أن يقول إن في الفواحش أدنى مصلحة لهم.

ومشيئة الله مقترنة برحمته، ومن أسمائه أنه (الرحمن) (الرحيم) وفي أفعاله وأوامره ونواهيه رحمة لخلقه؛ بل هو أرحم بهم من أنفسهم؛ لأنه يعلم سرائرهم وما ينفعهم وما يضرهم، وفي هذا قال -عزوجل- ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:١٢]. وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. وقال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧]. وقال -عز ذكره- ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّون﴾ [الحجر:٥٦]. وقد خاطب الله عزوجل نبيه ورسوله محمدا ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِين﴾ [الأنبياء:١٠٧]. وقوله تعالى: ﴿نَبِّىءْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيم﴾ [الحجر:٤٩].

ومشيئة الله مقترنة بتوبته على عباده من ذنوبهم إذا أنابوا إليه، وهذه التوبة جزء من رحمته؛ فقد تاب على آدم وزوجه -رغم اقترافهما

الخطيئة- وقد علمهما كيف يطلبان التوبة منه وفي هذا قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧]. وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه:٨٢].

ومن عظيم رحمته وتوبته على عباده من خطيئاتهم أنه يجعلها حسنات وفي هذا قال -عز ذكره-: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٧٠].

هذا فيض من غيض وخلاصته: أننا نؤمن أن العقل وجد بفعل موجد واحد هو الله، وأننا نؤمن بقدرته المطلقة في هذا الوجود؛ وحين نفكر بعقولنا، إنما نفكر في آياته، وكل المحسوسات الكونية، بكل مظاهرها، كما نفكر في كل عمل تقدر عليه عقولنا، لنعمر الأرض التي أوجدنا الله عليها، كما قال -عز وجل-: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١].

ولكننا لا نفكر في ذات الله أو صفاته فلا نقول عنه إلا ما قال عن نفسه ولا نصفه إلا بما وصف به نفسه كما قال -عز وجل-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]. كما أننا لا نفكر في كيفية تصرفه وإرادته في مخلوقاته فليس بينه -عزوجل- وبين عقولنا (قياس) نختلف أو نشترك

معه فيه، فليس لنا علم إلا ما علمنا إياه وهذا هو ما قاله الملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيم﴾ [البقرة:٣٢].

فإرادته مطلقة وهذه الإرادة مبنية على حكمته، وفي هذه الحكمة السعادة للمخلوقين، ومن يقول غير ذلك يتجاوز في فهمه للعقل ودوره.

وعلى هذا الأساس فهم المسلمون دور العقل، وأقاموا حضارتهم على العلم، مع إيمانهم بالله إيمانا مطلقا بأنه العليم المتفرد بالعلم، وكل مخلوقاته يستمدون علمهم من علمه.

ومن علوم المسلمين تعلمت أوربا أكثر من ثمانية قرون ففي نموذج واحد من هذه العلوم بين المفكر الفرنسي الشهير (غوستاف لوبون) أثر المسلمين في صقلية حين حكموها، ففي الزراعة لم تكد أقدام العرب ترسخ في صقلية حتى أقبلوا على الزراعة، فانتشلوها بسرعة من الانحطاط التي كانت فيه، وأدخلوا في صقلية زراعة القطن، وقصب السكر، والزيتون، وانشأوا فيها المجاري المعقوفة، التي كانت مجهولة قبلهم. وكما في الزراعة تقدمت الصناعة في صقلية بفضل العرب فاستغل عرب صقلية ثروتها الطبيعية واستخرجوا منها الفضة والحديد والنحاس والكبريت والرخام والجرانيت، بأساليب فنية، وأدخلوا فيها

صنع الحرير، وما يرى في (نورنبيرغ) رداء الحرير الذي كان يلبسه ملوك صقلية مطرزا بكتابات كوفية، ويحمل كل شيء على القول بانتشار فن صباغة المنسوجات في أوربا من صقلية[١]. وفي التجارة وصف (غوستاف لوبون) أن نطاق التجارة اتسع أيام العرب بعد أن كانت صفرا تقريبا قبلهم، كما يدل على ذلك ما انتهى إلينا من جداول مكوسهم التي أدرجت فيما نظمه النورمان من القوائم في أوائل الفتح العربي[٢].

أما في تسامح العرب فيقول: لقد ترك لنصارى صقلية كل ما لا يمس النظام العام، فكان للنصارى في زمن الروم قوانينهم المدنية والدينية، وحكام منهم للفصل في خصوماتهم وجباية الجزية منهم، والتي فرضها العرب عليهم، وهي ثمانية وأربعون دينارا، على كل غني، وأربعة وعشرون دينارا، عن كل موسر، واثنا عشر دينار، على كل من يكسب عيشه بنفسه، وكانت هذه الجزية دون ما كان يأخذ الروم، ولا تؤخذ من رجال الدين والنساء والأولاد.

وسمح العرب في أيام سلطانهم بالمحافظة على قوانين النصارى وعاداتهم وحريتهم الدينية، وقد روى (الدومنيكي لزرادين)، وكان رئيسا

---

(١) حضارة العرب ص ٣١٠.

(٢) حضارة العرب ص ٣١٠.

لدير القديسة (كاترين) في (بلرم)، أن القساوسة كانوا أحرارا في الخروج لابسين حللهم الدينية لينال الناس القربان الأقدس[١] كما روى (موركولي) أن العرب لم يمسوا الكنائس القائمة في صقلية حين فتحهم لها. ثم يقول: «وإن صقلية حين جلاء العرب عنها كانت في أرقى ثقافة وصناعة واجتماع حين دخلوها ونحن حتى علمنا أن قيمة تأثير إحدى الأمم في أمة أخرى من ناحية الحضارة تقدر بمقدار نهوضها بها، واصلاحها لها، وأنه كان للعرب تأثير عظيم في صقلية»[٢]. هذا هو عقل العرب والمسلمين، وتأثيرهم في أوربا شهد به عدد من المفكرين الأوربيين المنصفين، وربما أن بعض النصارى من أتباع الإمبراطور البيزنطي (مانويل الثاني)، لم يقرؤا شهادتهم أو أنهم قرأوها ولكنه يصعب عليهم الاعتراف بها ويأبون إلا أن يصفوا دين الإسلام بأنه يقوم على العنف، وهو قول يتعمد الخطأ وليس له من دافع سوى التعصب والكراهية لدين الإسلام وأتباعه.

وفي الختام: نحن ندرك أن من النصارى من ينبذ التعصب والكراهية، ويسعى إلى معرفة الحقيقة، ويؤمن بالتعايش في إطار الإخاء الإنساني. بل وندرك جيدًا أن منهم من لا يستكبر عن قبول الحق إذا دعي إليه،

(١) حضارة العرب ص٣٠٧.

(٢) حضارة العرب ص٣٠٩-٣٠٨

ومنهم من دافع عن الإسلام واعترف أنه الدين الحق وهؤلاء ممن ينطبق عليهم قول الله -عزوجل: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُون﴾ [المائدة:٨٢].

ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نسأل الله -عزوجل- أن يمن على عباده جميعًا بالأمن والسلام في أنحاء الأرض، وأن تنتهي الحروب التي أثقلت الإنسان، ودمرت طاقاته، وأن يسود العدل وإحقاق الحقوق، ويزول الظلم والطغيان في حاضر الزمان وقادمه.

والله المستعان وهو نعم المولى ونعم النصير.